هناك من يرحل وحيداً

محمد سامي

الكتاب:
هناك من يرحل وحيداً
المؤلف:
محمد سامي
رقم الإيداع:
٢٠٠٥/٢٢٥٧
الإشراف العام:
أ. محمد سامي- م.سند راشد
المدير التنفيذي:
أ. محمود سراج
المستشار الثقافي و الإعلامي:
أ. محمد فتحي
مدير المكتب:
أ. أحمد عبيد
مسئول التوزيع:
أ. أحمد عبدالمنعم
* * *
التصحيح:
أ. محمد عيد
أ. إبتهال إبراهيم

DIAMOND BOOKS
إصدارات دايموند

دار ليلى
جمهورية مصر العربية- ٢٣ ش السودان
الدقي- هاتف: ٣٣٧٠٠٤٢
الموقع: www.darlila.com
دايموند بوك
الكويت- هاتف:٠٠٩٦٥٧٥٥٥٤٣٩
الموقع:www.diamond-book.com

محمد سامي

هناك من يرحل وحيداً

(رواية)

دار ليلى - دايموند بوك

إلى أمي..

دنياي وآخرتي..



وإليـــــها..

إلى عشاق الوطن، بترتيب الألم..

الزعيم (جـــــمال عبد الناصــــر)..

الحلم الذي لم يكتمل.. وأنفاسه الأخيرة تضيع أمام عجزي.

µ µ µ

الدكتور (نبيل فاروق) والدكتور (أحمد خالد توفيــق)، بعــدما غصت وراءهما في يمّ الكلمات.. وللرائع (أمين معلوف)، حين جلسنا معاً على (صخرة طانيوس).. و(رضوى عاشور)، ذكرى أيام باكية في (غرناطه)..

µ µ µ

إلى الإخوة (جمال الدين فيروز) و(عبــدالله شــلبي).. (أحمــد العايدي)، (محمد فتحي) و(تامر البلشي).

µ µ µ

و إلى شقيقتي الغالية، وزوجها، أن أهديا لي.. "عبدالله".

µ µ µ

و إلى (آيات الأخرس)..

و إلى.. *الــ...ـــو...طــ...ـــن..*

µ µ µ

ما بعـــد الوطـــن

حين تمتلئ المفكرة بالأسماء، تماماً كما يمتلئ بها القلب.. حينئذ يصعب عليك أن تغفل من كـــانوا دعامـــة لـــك، في مواجهـــة الإحباط.. والألم .. والفشل..

من كانت فرحتهم للنجاح، تفوق فرحتـــك أنـــت ذاتـــك، وإلتماعة أعينهم بريق، يشتت ظلمات عاتية**..**

تتوالى الأسماء، وتتعدد.. ولكل منها دور لا يمكنك أن تغفله..

(محمود سراج)..(حسام رمضان)، (تـــامر فتحـــي) و(رامـــي السقا)..(أحمد عبدالمنعم)، (محمد عيد)، (أحمد الـــسيد) و(أحمـــد عبيد)..

(دعاء حسين)، و(إبتهال إبراهيم).

ليست مجرد أسماء تملأ أسطرًا بيضاء.. ولكنها أسمـــاء، مـــلأت أسطرَ الحياة نفسها، حين كتب القلم**..**

و ضاق الوطن.

µ µ µ

(١)

أقدامُه النحيلة تتشابك مع أرجل الكرسيّ الخشبيّ، تاركًا رأسا يتدلى خلف المسند، بشاربه المُتدلّي فوق الشفَة السُفلىَ بقليل..

إلى جواره –وعلى مقربة من سريره الحديدي الصَدئ– تنتصب المدفأة، وتنذر بسقوطها في أية لحظة..

أشياؤه المُبعثرة في أركان الغرفة، وكُتبه الممزقة، وثيابه الرثّة المُعلقة على مسامير في الجدار –إلى جانب الصور– وبقايا حذاء قديم بالٍ، وبقايا ستارة مُزركَشة، كانت بيضاءَ فيما مضى.. هذا المشهد، وتفاصيلٌ أخرى لا أهمّيّة لها، تدل على بؤس الرجل؛ وفاقَته..

لم يكن كذلك من قبل!!..

ولم تكن حالته بهذا السوء المتفاقم قط!!..

كان دءُوبًا..

مُخلِصًا لصحيفته التي طوالاً ما كان فيها، بعيدًا عن أهل بيته..

ظل يلهث وراء الخبر المفاجئ، والقصة المدهشة، حتى وقف على مشارف الحقيقة..

لم يكتف بالنظر إليها من علٍ، ولكنه اقترب منها..

لامس أبوابها المغلقة..

ركض وراءها بفرح طفولي محاولاً التقاطها – كما يجري صبيٌ وراء فراشات الحقول – وكلما اقترب منها، تعثّر بشيء ما، لتفر الفراشات بعيدًا في الفضاء..

حاول أصدقاؤه أن يردعوه..

أخبروه أن هوايته هذه ستكلفه الكثير، ولكن عناده كان أكبر من رجائهم وحبهم له..

قال لهم ما ألهو به، من أجلي وأجلكم..

حاوَلوا ثانية، وثالثة، ولم يعد بإمكانهم أن يفعلوا أكثر من ذلك، فتركوه خلف وهمه، مُدركين عاقبة النهاية..

هذا العناد، وتلك النـزاهة، أزعجت الكثيرين ممن يطاردهم شبحه في كل مكان..

خطواته تكبر، ويعلو وقعها، وهم يتلفّتون خلفهم بارتباك، وكلابهم الطليقة خلفه تطارده.. لا يطلب شيئًا لنفسه!!.. لا يهمه إصرار صاحب المبنى على رفع القيمة الإيجاريّة، ولا رغبات الحكومة وحَميّتها المجنونة في رفع الأسعار والضرائب، ولا حاله هو نفسه الواهن؛ جرّاء السُكريّ..

إنه راضٍ بشقته المُتداعية في منطقة "السيدة"، المكتظة بالأطفال المُتسخين، والباعة الجوّالين، ونفايات الورش الصناعية، وأشياء أخرى..

– أنا أيضًا سأُشفى من سقمي وعوْزي عندما ينقرضون.

– *أنت تعاني من ارتفاع حاد في ضغط الدم.*

في غرفة الطبيب الذي سيق إليه مُرغمًا لم يفاجئه الخبر..

ضَحِك..

هاهاها..

– أعرف ذلك منذ زمن طويل، وقبل نبوءة هذا (النصّاب

الأنيق).. فهذا الصداع اللعين ينهش رأسي كل يوم، فتتملكني رغبة في تفجيره طلبًا للراحة.

خطوات قليلة تفصله عن جنونه اللذيذ..

تلك المتعة تسحره، كلما اقترب من فراشاته الملونة..

وكلما اقترب أكثر، يجدها تفرّ من بين أصابعه من جديد.

* * *

وذات شتاء..

في مساءٍ مثقل بالصمت والصقيع، كان يجلس إلى جوار بعض الكتب التي أكلها مزيج من الرطوبة والقِدم.. الجيران نائمون، والسجون ساهرة، والحكومة تخطط، والملاهي عابثة، و...

إنها سهرة حميمة، افتقدها مُنذ زمن..

الشتاء قارس، والليل قارب انتصافه.. ثوان قليلة وتعلن الساعة تمام الثانية عشرة، وتلفظ دقاتها الصاخبة المزعجة، والنعاس يتمكن من عينيْه، فتبدو حركاته بطيئة متراخية، ورأسه مضطرب بالهواجس يفكر، وعضلات وجهه تنقبض، وسيجارته لا تنطفئ..

إنه يبحث عن شَرَك لفراشاته الرخوة، المُتناسلة.. يبحث للمدينة عن خلاص من فيروساتها:

- *إيييييه*.. أيها الخراب الموغل فينا.. لابد أن نتطهر منك، ونستلقي على ظهورنا آمنين.. نحلم كما نشاء.. سيحدث هذا.. لا شيء يشغلني في تلك الحقبة، أكثر منك.

ضجيج في الخارج، وهدير محرك سيارة، يمزق هدوء هذا المساء..

إإإإإإإإإإيييييءء.. خطواتٌ تقترب من باب البيت.. يترك ما بيديه، وينتصب سمعه للصوت المُداهم.. *(طك طك طك)*.. يجفل وتنتفض روحه، ويتقلب جثمانه..*(طك طك طك)*.. الطرقات تتسارع وتشتد، فيهبُ واقفًا ويخفُ مُسرعًا لفتح الباب *(طك طك طك)* خشيَة أن يهوي تحت قبضاتهم..

يفتحُ الباب.. يواجه مجموعة من الرجال يتقدمهم (فيروس) غاضب.. هيئته تدل على ذلك..

يتمنى أن يقهقه من قلبه، إذ يرى بعينيه أولى انتصاراته، ولكن الخوف والبرد يحولان دون ذلك..

يتنبه إلى (الفيروس)، يخاطبه:

– أكاد أسمع صرير أسنانك من البرد وأنا خارج جُحرك، وأسمع وصوصة بطنك أيها التافه.. دعنا وشأننا، نغمرك بالدفء والطيّبات.

–أنا لا أعرفك، ولم أزعجك.. أنا ضد المفسدين، والأوبئة، و...

–أوتظن نفسك حارس الأمة؟.. إنك تزعجنا بصخبك، وشعاراتك أيها البائس المُنقرض.

يتركونه ويغادرون المكان، فيصحو في داخله هاجسٌ طالما ساوره كلما أمعن في شقاء حاله، وكلما رأى ما حاق به بسبب عناده – وهو الذي لا ينأى يصارع طواحين هواء، أو أخطبوطًا بآلاف الأطراف..

ينتفض كمن أفاق من حلم مرعب.. يطرد هواجسه..

يمسح عن ذاكرته كل ما تسلل إليها في تلك اللحظة الواهنة..

صوت وحيد تركه يدوّي في مسامعه.. منادٍ يهتف من وقت لآخر:

– أخلد إلى عنفوانك أيّها البائس.

ألِفَ زياراتهم (الودية)، ومُطارداتهم (التهديديّة)، وهداياهم (المرفوضة دومًا)، واعتاد رائحتهم الغريبة..

ليست بالكريهة جدًا..

إنها تشبه العفونة الرطبة، مُمتزجة بتلك العطور باهظة الثمن.. إنه يكره تلك الرائحة، ويكره مصدرها، فاندلعت حروفه على صفحات الجريدة، حربًا ضَروسًا على الفيروسات، والأوبئة، وما زال يؤججها يومًا بعد يوم.. مُنتشيًا بانتصاراته الصغيرة على جشعهم، وفسادهم، حتى نسي مَنْ حوله تمامًا.. وتسأله حبيبته:

– لِمَ تفعل هذا دون الآخرين؟!.. دعنا نحيا بسلام.. سوف لن تجني من عنادك إلا البؤس، والتعـــ..

يقاطعها:

– أنا أفعل هذا لأنني أملك الإرادة والفعل، وسأرشقهم بحروفي حتى يندثروا.. أعرف بأنني أظلمك بقسوة، ولكنني لن أسكت تاركًا لهم حرية الحركة، ليسبحوا في دماء الضعفاء.. يفتكون بكُرياتهم الحمراء والبيضاء.. وصفائحهم كذلك، حتى ينالوا منهم، فيخرّون صرعى.. لن أدعهم يفعلون هذا، وسأُشهر قلمي في وجوههم، وأرجمهم بالكلمات المُرّة حتى ينقرضوا!.. أو يفرُّوا بعيدًا.. هذه الحرب اللعينة ترهقني.. ولكنني سأخوضها.

– أتصارع من أجلنا حقًا، أم تسعى إلى مجدٍ يُخلّدك؟

– *اصمتي*.. أخالكِ منهم، عندما تكلمينني هكذا!!

– سوف لن أحتمل كل هذا.

– لا أطالبك بالاحتمال.. سأخوض حربي وحدي، وليكن ما يكون.

هذا سقوطٌ آخر!.. لا.. بل هزيمة مباغتة، فالهزيمة أخف وطئًا!.

يا للمرارة..

حبيبتي، وصحتي، وأمي، وحروفي..

وأشياء أخرى كثيرة لا أذكرها جيدًا، أراها تتبدد مثل حُلمي، وهذا الصُداع اللعين ينهش رأسي، ويُباعد بيني وبين الأوبئة القذرة.. وأنا وحدي أصارع كل هؤلاء بسلاح، أوْشَك أن يستنفذ كلَّ ذخيرته!

* * *

(٢)

أشعلتُ سيجارتي، حين تداعتْ في ذهني الغضّ، كُرةٌ ماردة من ثلجٍ أسود، له لون الدم الفاسد، ورائحة هي بين القُرنفل وبقايا الجثث!!..

فتّشت عن قرصٍ مسكن، آسِر به صراع تلك الجياد المتوحشة في جمجمة الرأس، الذي وضعته بين ركبتيّ..

يا للألم!..

أحاول أن أستغيث..

أصرخ..

لكن صوتي كان يحتبس في فمي..

يرفض أن يتجاوز شفتيّ الدامية، بجراح الصمت الطويل.

حشرتُ رأسي بين وسادتين، ورُحت أستمطر النوم من جنبٍ لآخر..

ولحظة أن لفَّ الصُداع بقايا متاعهُ، عاد ليشعل في ذهني مُجدَّدًا جمرات الوعي المستكين، الذي بدأ ينبت كفطر الأرض..

– أنا الّلهب.. وأنا الهشيم.. وإنَّ بعضي ليأكل بعضي!

حينئذٍ بحثت عن فضيلة الدموع.. وأفقت!!.. أحمقٌ أنا!..

نعم..

أعترف الآن بأنني أحمق..

وبأن العمر الذي عشته كله، لم أتعلم فيه ما تعلمته منكِ خلال عامَيْن اثنيْن!..

أعترف بأن غابات كحلِ عينيْكِ، أشدُّ وطأة من ليلةِ شتاءٍ عاصفة، ابتلعتْ أحلامَ عصفورٍ حقير..

وأعترف أني رغم العَلقم الذي سقيْتِني إياه، لا زلت أرشف من عسلك المسموم..

وأني رغم كرهي لك، لا زلتُ أهواكِ..

يا للجنون!..

ماذا بي قد فعلتِ؟..

مثلُ ممثلة بارعة، اختطفتِ ذات يوم أضواء حياتي، وجعلتِها تنير ليلكِ المُظلم..

كيف احتملتُ جنونكِ الجامح، وتوحّشك المكبوت؟..

كيف ارتضيتُ لنفسي أن ألعب دور المخدوع؟.. كيف أعميت نفسي عن كبريائي وكرامتي؟.. كيف سمحت لتلك المأفونة -دموعي- أن تجري أنهارًا، لتروي شجرة انكساري؟.. كيف آمنت بأن السواد - في ضوء الحب- يصير وميض نهار؟.. كيف صدّقت دمعكِ الخائن، يسيل على وجنتيْكِ الجميلتيْن، ورأسك على صدري، تطلبين الغفران؟..

وتعدين بما لا تحققين!!..

مليون مليون، أحمق أنا..

تعشقين أن تكذبي، وأنا ما عدت مُضطرًّا لتصديق الكذب!..

فأنا الذي صدقت ما قلتيه أنتِ..

والآن يجب أن أضع النهاية..

إن كان الحب قدرًا.. فأنتِ قدري!..

وإن كان الحب اختيارًا.. فأنتِ اختياري!!..

ولا عَجب.. فإني الذي شاركت في صنع الحكاية..

فإليكِ حبيبتي أبعث باقاتٍ من زهور العمر الحزين، وأكتب بكل أقلام العالم: أحبكِ..

وأكرهكِ..

إليك أسطر أحرف الحب، من دماء القلب..

أحبك / أكرهك..

أنا أحمل بداخلي حُبًّا لكِ، ما استطعنا تحمله، وجعلني أسيّر رغبةٍ مجنونة، تدفعني أن أختفي من هذه الدنيا..

أن اندمج في روحك..

نفسي توّاقة إليكِ، مولعةٌ بكِ..

تعلمين أنني زرعت حُبنا طُهرًا، ورويْتُه إخلاصًا، ورعيْته أمانًا..

وتعلمين أن حُبي لكِ مثلها.. فلِم قتلتِ –غدرًا– تلك الريْحانة داخلي؟..

أنا الذي يومًا صنعتك.. وأضرمت في إحساسك المشلول ناري.. وصنعت نارًا من الحطب..

كم قرأتِ الحب في الكتب وتوهّمتهِ!..

بَعدي يراكِ الناس الآن، وكأنهم ما قد رأوا في الكون مثلك..

كنتِ قبلي مثل أشجار الصحاري؛ لا رطب فيك ولا تمر.. وبيديَّ صرتِ بستانًا.. نسّقتُ فيكِ كل شيء وما مللت من التعب..

في عينيْكِ رصعتُ آلاف الشهب..

وأضأت في شفتيكِ اللهب..

آآآآآآه..

كم أشتاق إليكِ!..

خذيني إليكِ من جديد، بين جناحيّ يمامة، لأصير بريدًا للعاشقين..

أو على ظهر غيْمة، أيَا وطني البعيد!..

لقد صارت الحياة إظلامًا..

وتصفيقــًا حارًا لجمهور، يُجلّل المُمثل بالطمَأنينة..

مشهدٌ تتلقفه الذاكرة، فيتماهى، ويخبو.. ثم يضيع في زحمة الدروب..

الدروب المُفضيَة إلى شتاء الغُربة الطويل..

والآن تتمردين؟..

ما عُدت أغضب.. ولا أثور.. ولن أجن عندما تزدادين جمالاً.

وعندما يزيد الطلب.. وتنسين هوانا!..

مدّي جسورك للجميع..

مَنْ ذا سواي سيكون فارسك المرتقب؟..

ماذا سيفعل بالّتي قد صُنتها، ورفعتُها قدرًا جليلاً؟..

قد تصبحين دُمية..

مَحْظيّة..

أو لعبةً لديه.. ما بين آلاف اللعب..

فبدون حُبي..

أنتِ لا شيء..

لن تكوني..

تُرى، أتكون النار، من دون اللهب؟!..

* * *

هاهي صورتك المرسومة –في ظلّ الشمس– تطاردني أينما رحلت، فأهرب منها راكضًا.. ترسُمين أحلامك على نافذة الخيال، وتُعلّقينها في مهبِّ الريح، فتعترض طريقي.. والأرض تجري خلفي، ولم أكن أعرف، هي تركض لماذا؟..

لتسحقني..

حملتُ معي جسدًا –أثقلته الهموم– ورَحلْت..

لم أكن ليلاً يجترّ السواد، ولم أكن نقشًا، نُقِشَ بكآبة السنين..

وقرار الرحلة ليس سهلاً، كي أكتفي بمجرد نظرة وداعٍ أخيرة، لكل الوجوه التي ألفتها.. أضع جسدي بين كل ذلك الرُكام البشري.. تغصُّ الساحة بالحافلات وهموم الناس!..

الأرض والبرد والأجساد الهزيلة..

والليل يصحو ويُمطرهم بالأرق..

أنتظر ذاك الصوت الصاخب، عبر مكبّر صوت يتوسط الساحة؛ ليُعلن وقت الرحيل..

الساحة تعج بالسيّارات المختلفة..

صخب..

أحمل جسدي، وحقيبة تحوي ملامحي- تلك التي أرغب أن يراني من خلالها الناس..

-" *ما الذي أتى بك إلى هنا؟*"

وقفتُ حائرًا عند ذلك السؤال..

كل ما أتذكّره أني استيقظت مُبكرًا، وحملت حقيبة سفري وأتيت إلى هنا، حيث تنطلق الحافلات إلى جهات مختلفة، خارج المدينة..

لا يهم أين تتجه.. المهم، أن تغادر هذه المدينة.

يضحك الرجل كثيرًا، عندما يستمع إلى مُبرّرات هذا القرار..

يضحك، مما يجعل بعض المشاة يتوقفون عند مدخل المتجر، رغبة في معرفة سبب الضحك..

يضحك أحد الواقفين عند مدخل المتجر..

يشاركه البقيّة الضحك..

يصاب الناس بعدوى الضحك، فأبقى الوحيد الواقف ببلاهة، لا يعي مُطلقًا لماذا الضحك، ومَن يضحك على مَن؟!..

يضجُّ صدري ببكاء الغُربة والتشتّت..

أبكي، فيرتفع صوْت الآخرين بالضحك..

أبكي.. ويضحكون!!..

أحاول أن أُسمِعهم نشيجي، فيأتي صوتي واهيًا..

أحاول أن أتحدث، ربما استمع إليّ أحدهم..

لكنهم منهمكون بالضحك، وبمتعة غريبة..

أتعجب من غبائي!..

منذ زمن وأنا أبحث عن مُتعة الضحك، حتى لو لم يكن هنالك

سبب.. وهاهي الفرصة تأتي إليّ، فلماذا لا أضحك معهم؟..

حتمًا سأجد سببًا معقولاً للضحك فيما بعد..

أبدأ بالضحك..

أفاجأ بقوة صوتي..

أضحك.. أضحك..

والساحة مملوءة بالحافلات..

وروحي التي هاجرت، صارت نوارس لهفة، باحثة عن مكان..

عن زمان..

عن مواسمٍ للعشق..

هاربةً من قفص الغربة الكبير..

وصورتكِ، تظل متشبثة بالظل، كأنك خطيئتي التي لا أستطيع الفكاك منها..

أفكر بشكل جاد في الخَلاص..

أبحث عن المخرج..

هناك فكرة تُساورني: أن أستدير فجأة لأُباغت الظل، وأمسك بالصورة، فأمزقها تمامًا..

ركضتُ– بكل قواي..

أحسُّ بثقل قدميّ، اللتيْن تصران على مُعاندتي كيلا أحقق ما أريد..

بكل قوة، استطعت عزلهما عن جسدي، وحلهما من ساقيّ..

تمكنت أخيرًا من الانطلاق.. ألهث، أكاد أموت، لعابي يجف في فمي.. قواي تخور، أطراف جسدي تصرخ.. سأموت لا محالة..

كلما ركضت، اقترب الظل، والتصق بي أكثر..

صورتكِ المرسومة – بطلاء ليليّ– في ظل الشمس، تُمسك بي..

الظل لصيقي، والصورة تتشبث بأطرافه، لا تريد الفكاك..

يا له من جنون!..

مللت الركض، مللت الركض..

تعِبَت قواي..

قدماي لا تُساعداني على الاستمرار..

أحاول اقتناص الفرصة، لأنقضَّ على الصورة الشبح..

أحاول استغفال الظل الراكض خلفي.. أندسُّ خلف الأشجار الكثيفة في تلك الغابة التي وصلتُ إليها، ألهث، أتجشأ أنفاسي.. صدري يتقافز أمامي.. ضرباتُ قلبي المتصاعدة تخرج من جوفي كبركان يغلي، في جوف الأرض يوشك على الانفجار.

سقطت مُتهالكًا خلف شجرة، نسيتُ الظل والصورة..

تذكرتُ بعد أن هَدأت فرائصي، ووقفت على الفور -دون شعور- أبحث عن الظل..

لم أجده!!..

أعرف أنك تسكنينني منذ الأزل، وأعرف أنكِ كل شيء في حياتي منذ أول رَجُلٍ وطأت قدماه الأرض.. أنا وحدي أعرف جنيّة البحر التي خرجت من بحار العشق، عبر كل الأزمنة.

لم أعلم أنكِ كنتِ الحب والبغض، الأمان والخوف، الجزاء والعقاب..

كنتِ نشوة المتعة، وعذاب العقاب..

جمعتِ كل ذلك في هيئة واحدة.. تكوينٍ واحد..

ظللت أهرب حتى هذه اللحظة، ولا تزالين تطاردينني..صورتكِ معي أينما ذهبت.

حقًا!!.. الصورة.. اختفت تمامًا!..

أمر غريب!..

ذُهلت!.. رقصتُ فرحًا.. أغني، أمرح، أتجول شاعرًا بالنشوة بعد الخَلاص.. أشجار تتمايل مع الريح..

ياللروعة!..

لكن..

أين أنا الآن؟..

إلى أين ذهبت في رحلة ركضي؟..

مَن أنا؟..

ما اسمي؟..

ما تاريخُ ميلادي؟..

أين بلدتي التي أعرفها منذ زمن؟..

الصورة..

وحدها أذكر!..

نظرت خلفي، فظهر الظل من جديد..

صورتكِ مرسومة به.. أحتاجها.. أحتاجها كي أتذكر من أنا؟.. ما اسمي؟.. ما تاريخ ميلادي؟.. أين بلدتي التي أعرفها منذ زمن؟..

ركضت نحوه، ركضت.. والظل يهرب منطلقًا عني، وكلما اشتد ركضي اشتد هروبه..

أشتدُ أنا أكثر، وأكثر..

أركض مُصرًّا على اللحاق به.. نجري خلف بعضنا.. الظل أمامي، وأنا خلفه الآن.. مسافات طويلة نركضها.. ظهرت أمامي صخرة كبيرة..

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقفز فوقها، كي أهوي، أهوي.. في أخمص أعماق الصورة، داخل الظل.. لأشهق الشهقة الأخيرة.. وأغترب الغُربة الأخيرة..

وأحيا العذاب الذي لا ينتهي، والداء الأخير!.

* * *

(٢)

وَسَط الحُزن والذهول، رأيتُ الوجوه التي عرفناها معًا..

رأيتُ الشواطئ والبيوت التي ارتدناها معًا..

رأيت الصُّحف والكتب..

أتدرين ماذا فعلتُ بالكتب؟..

جمعتها ذات مساء، ثُمَّ أسلَمتُها للنار في برميل، كتابًا كتابًا، ورائحـــة الـــورق المحروق تملأ رئتي، والأسماء والأمكنة والسطور – كلها– تتلظّى في الجحيم..

تصرخ من لهيب نيرانه..

أو ربما كانت تلعنني!..

مثلما سيلعنني الناس غدًا وهُم يتهامسون:

- كانت في حياته كثيرات!.. كل امرأة كتبت اسمَهُ عرفته.. كل امرأة ذكرها، عبر على جسدها!.

وأنا لم أعرف غير واحدة!!.. تُبدِّل الأشياء ملامحها وأسماءها!..

المسألة إما أن يكون حبًا أو لا حب..

وأنتِ كنتِ مُغامرة..

علاقتي بكِ كانت مُغامرة مجنونة غير محسوبة النتائج، عاقِبَتُها حتمًا وخيمة.

يقول (شكسبير): "**العالم كله مسرح، وإن الرجال والنساء مجرد ممثلين، يدخلون المسرح ويخرجون في أوقات محددة.**"

أجل قالها..

ثُمَّ غاب في بحر الظلمات..

ليس هذا وقت (شكسبير) يا حبيبتي، فأعتذر.. (شكسبير) في الكتب وعلى مسارح لندن.. ثم إن (شكسبير) مات.. والموت الآن وحده على المسرح، ووحده يكتبُ ويُمثّل ويُبدِع..

والجمهور أمواتٌ، أموات!..

آه.. حبيبتي تعاليْ..

أريد أن أبكي بين يديكِ بكاءً أخيرًا!.

وربما وداع..

تطلّعي إليّ مرةً واحدة..

مرةً أخيرة نركض فيها تحت المطر، في شارع وسط أمواج البشر، نضحك والعيون ترمقنا باستغراب..

وربما بازْدِراء..

تعاليْ من أجل فنجان قهوة أخير، في كافيتريا محطة مصر.. فنجان أخير نرشفه –لو شئتِ– في المقهى ذي الواجهات الزجاجية.. تلك التي تطل على الشوارع العريضة بمعالمها المُتباينة..

ميدان رمسيس.. مسجد الفتح.. عمارة (الإيموبيليا).. هدموها؟.. إذًا ميدان العتبة، وقهوة (متاتيا).. حطّموها؟..

وماذا سيهدمون بالغد أيضًا؟.. *(ياااااا خوف فؤااادي من غدي)*.. عَظَمة على عَظَمة يا ستِ!.. خيْبة على خيْبة يا ستِ!..

لم يبقَ شيءٌ يا حبيبتي..

لا..

بل هناك العالم الصاخب من حولنا..

عالم (فودافون) وهي تصرع (موبينيل) بالحملة الترويجيّة.. رغم ذلك أنا أُفَضّل خطوط (موبينيل).. *اتكلم من القلب*..

عالم الهاتف الجوال، والإنترنت، وأقراص الليزر، والبقر المجنون، وحمى ايبولا، وجنون الأولمبياد، وأنفلونزا الطيور..

العالم الذي يموج من حولنا إرهابيين، ومُتطرّفين، أصوليّين وتقدميّين، ليبراليّين.. مُتشدّدين، ومنظمات وأحزاب وأحلاف مشبوهة، وتكتلات اقتصادية تطبق بكلاّباتها علينا من كل جهة..

المال..

المااال..

الماااااااااااال..

اللغة التي لا يختلف اثنان في فهمها..

المال في البحر، على الشطوط، في الشوارع والبنايات الضخمة.. المال الذي لا يقف أمامه شيء.. بحرٌ هادر، يكاد يغمر الذين يملكونه، والذين يحلمون به..

وأنتِ وأنا يا حبيبتي، ضائعان وسط هذا الجنون!..

نهرب.. أو ربما كنت أهرب وحدي، إلى الشِعر والروايات والأحلام..

والآن..

بعدما أغرقتني الأحلام، وبعدما أحرقتُ الكتب، وبعدما التفّ خاتمه حول إصبعكِ، فذبُل عِرق الورد، ودهسته الأقدام، أقول:

– لم يبقَ شيء.

أجل لم يبقَ شيء..

* * *

في غرفة المشفى؛ يبدو كل شيء ساكن..

وجهه الحيادي، نظارته السميكة، أنامل المُمرضة النحيلة، جهاز قياس الضغط، صورة الجهاز الهضمي، المصلوبة على ظهر الباب.. حتى

آثار الدماء على غطاء السرير!..

كانت الساعة المُعطّلة تدق بصوت مخنوق، بين لحظة وأخرى..

يتدلى بندولها دونما حركة في فضاء الغرفة – الذي يفوح ببرودة تنبعث من بلاط الأرض كعاصفة ثلجية تغمر المكان!..

رنّ جرس الهاتف بصوت صاعق، حطم كل طقوس السكون.. أشعل في أجسادنا –هكذا أظن– نارًا مُتوترة..

عندئذٍ اختطف السماعة..

علّقها بين كتفيْه وأُذنيْه، وراح يجرجر سِن قلمه على الورق بعصبية ظاهرة:

–ألو.. ها.. طمنّي؟

....

– ماذا؟!

....

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. ولكن!..

لا أعرف؛ منذ متى وأنا أخاف الدم؟..

كل ما أعرفه أنني مؤهل لفقدان الوعي ساعة مشاهدته.. وكثيرًا ما بللني العرق، وفقدت القدرة على استخدام ساقيّ بكفاءة..

لا أدري لماذا فَزِعتُ من نظرات المُمرضة، التي كانت ترمقني من حين لآخر بنظرة تكتظ بالشفقة!.. خشيتُ أن تسمع ضجيج تلك الانهيارات والهزائم التي تخفق في قلبي، مثل طبول العسكر!..

ماذا؟..

هل عادت الحياة لساعة الجدار؟..

هل تمردت الغرفة على قانون الثبات؟.. من الصعب جدًا أن أُركّز نظري على شيءٍ محددا!.. كل ما أمامي كان يدور.. يتحرك.. حتى معدتي الفارغة!.

ربما انفرط قانون الجاذبية!

أشعر أن ذلك الشتاء البارد، الذي كان يلف الغرفة قبل قليل، قد لف عباءته فجأة خلف تعاقب الفصول السريعة.. ورحل!.. كم هو حميميّ هذا الشتاء!.. أريد أن استشعره بعمق..

أن أفتح له رئتيّ بكل طاقتيهما، لتُعانقا ذلك اللهيب المُدمّر –

رغم يقيني بأنهما ستفشلان تمامًا، وسترفعان رايات الهزيمة أمام تلك الحرائق المُستَعِرة!..

"هل تريد كأسًا من الماء"؟.. (هكذا سألتني الممرضة)

– نعـــ.. لـــ.. لا..

ظل لساني عالقًا في سقف فمي.. فشلت في ترطيب شفتي.. لم تعد غدد اللعاب قادرة على الإفراز.. لقد جفّت مثل ضرع جيفة!.. شعرت أن رغبتي في الماء ستكون نوعًا من الفضيحة.. من إعلان الانخذال على الملأ، وتعرية المشاعر أمام الآخرين!.. أريد أن أبدو مُتوازنًا كما يليق بفحل.. بذكر.. برجل..

أريد أن أبقى حصيفًا، كـــ(رشدي أباظة)، يقوم بدور البطولة في فيلم عربي، ينتهي بمكافأته بأجمل النساء!..

كان صوت الطبيب –الذي لا يزال يواصل حديثه الهاتفي من وراء طاولته– يبدو بعيدًا وغائرًا ومدفونًا.. تمامًا كصوتٍ مكسور ينطلق من قعر بئر عميق، تتقاذفه الأصداء، فيصل إلى مسامعي تائهًا مبتورًا!

ثَمّة حبيباتٍ من العرق بدت تنفضُ شيئًا فشيئًا كالمُذنبات، تاركة

وراءها خطوطًا دقيقة من الماء، تنتقل بهدوء لتُبلّل ملابسي.. فيما بدأت تلك الغيوم الداكنة التي كانت تحجب رؤيتي تنقشع، لتعود محتويات تلك الغرفة الصغيرة إلى وداعتها البيضاء، وسكونها المهيب..

وحياديتها أيضًا.

باستثناء وجه الطبيب الذي احتلّه العبوس والتجهّم، وباستثناء بقايا ألم مرا!

– ماذا؟.. هل ثمة حقنة يا دكتور؟.. لا، لا أريدها.. أرجوك!

ضحك بشفتيه فقط، فبدا وجهه بغمازتيْن، كأنما أُقحمتا فيه عنوة، وحدج الممرضة بنظرة طافحة بالمعاني من فوق إطار نظارته، ثم دفع بكرسيه حتى ارتطم بالجدار، وهبّ واقفًا..

تمطّى.. حاول أن يتثاءب، ثم نفض يديه بعنف:

– أنا آسف يا سيدي.. لكن نتيجة التحليل جاءت إيجابية.. ما كنا نخشاه، هو ما وجدناه.. (السرطان).

نصمت..

يخلع معطفه الأبيض.. يُعلّقه على ذات المسمار الذي تتشبث به

ساعةُ الحائط، وغادر الغرفة بعد أن ترك الباب مُواربًا!..

* * *

أجل، لم يبقَ شيء..

قُلتها في مساء خُطبتكما، ومضيت بعيدًا عن العيون الواسعة الكاحلة، التي تبرق فوقها ظلال (جيفنتشي) و(ايف سان لوران).. بعيدًا عن الثياب الأنيقة التي تخطو هنا وهناك.. المخمل الفرنسي الأسود الذي يكاد يشفُّ عن التفاصيل تحته.. الحرير المطبوع، و"الشيفون" المُتهدّل، و"الكريب" الوقور، و"الدانتيلا"..

آه..

"الدانتيلاّ" بورودها وعروقها الصغيرة..

أين يصنعون الدانتيلاّ؟..

أوه، لا أعلم.. ولا أريد أن أعلم يا حبيبتي، ولا أن أتذكر..

فقط تركتُ كل ذلك العالم وخرجت إلى شوارع (إمبابة).. إلى الأزقّة والبيوت..

إلى الناس الذين يملئون الشوارع، ويتبعثرون رجالاً ونساءً، شيبًا

وشبابًا، بقمصان ملوّنة مفتوحة، حتى ما بعد الصدر بقليل، وسراويل قصيرة، وشعور معقوصة إلى الوراء، بربطات منقوشة، تمامًا كما في المسلسلات الأجنبية.. سيارات مكشوفة في شارع جامعة الدول، وأغنيات صاخبة وكاميرات فيديو ومحمول، وطبول ودفوف، وأحيانًا كلاب!..

كلاب في المقاعد الخلفية..

كلاب بأطواق جلديّة فاخرة تلتف حول أعناقها..

كلابٌ في هيئة بشر..

يا الله..

منذ متى بدأت الكلاب، تسير بكلاب، في شوارع (مصر)؟..

منذُ متى يا حبيبتي و(مصر) ترتدي ما ليس لها؟..

وتغني ما ليْس يُطربها؟..

أأُغني؟..

لستُ أدري!.

لكنَّ الغناء أحيانًا حالة من حالات الوجع المُهلِك..

أنا إذًا موجوع.. والحرائق التي التهمت الكتب اليوم، التهمت القلب أيضًا..

أكتب لكِ إذًا بقلب محروق يا حبيبتي: لم يبقَ شيء، ولا أريد أكثر من أن تغفري لي..

أجل، اغفري لي، إذ ربما غفرت لنفسي حينها.

التخلي عنكِ جريمةٌ؛ أعرف..

لكنَّ بقاءَكِ جريمة أبشع، لن يغفرها لي أحد.. حتى أنتِ!..

هل تفهميني يا طفلتي؟..

طفلتي!..

سامحيني يا طفلتي، التي لن تلدها لي حبيبتي..

أودُّ لو ألمسكِ..

أُدخل يدي عميقًا، وأمرُّ على كتلة اللحم التي لم تكتمل ملامحها بعد.. أجذبها قليلاً، أعدل المشيمة كي لا تلتف عليها، ثُمَّ أُقبِّلها قبل أن أسلِّمها للموت..

أُقبِّل الدم والقلب النابض بعنف..

وأبكي..

يأتي الخراب دومًا، وأنتِ – يا للأسى– يجب أن تخربي..

قولي لي: كيف تكونين مصدر عذابي، وأنتي ثمرة لذّتي المجنونة؟.. وكيف أكون سبب موتك، وحبل الحياة يمتد منّي إليكِ؟..

هل يروق لكِ هذا الجنون الذي دفعوني إليه؟..

فقط لأني أردت أن أُعَبِّرَ لكِ عن حبّي، بطريقة تعتبرينها أنتِ وهم جريمة؟!..

لكَم أتمنى أن نقف –أنتِ وأنا– في منطقة وسط..

ولا أريدُ حتى أن تعذريني، أريد أن تسمعيني..

امنحيني هذا العزاء: أن تسمعيني مرة واحدة أخيرة..

ثُمَّ صيري كالآخرين.

يرشح العرق من أعضائي، وكائنات مجهولة باردة تدبُّ فوق جسدي.. وأنتِ؟.. أين أنتِ؟.. لِمَ لا تأخذيني إلى البحر؟.

أتكونين يا حبيبتي حاقدة عليَّ؟..

لِمَ لا تُريني وجهك، وتدعيني أتحسس طريقي إلى العينيْن، إلى الأنف، إلى الشفتيْن أطبع فوقهما قبلة محروقة؟..

وأبكي بين يديكِ وأنا أجرب لوْعة أن أختار الحرمان – فقط – لأنَّ حبكِ نعيمٌ اختلسته في غفلةٍ من العيون..

تعجّلته ولم أنتظر أن يطرق بابي.

* * *

(٤)

والوطن!..

سيكشف لي عن مدينة سريّة أخرى في أعماقه..

مدينة غامضة مريبة، الظلال فيها أكثر من الأضواء.. أُناسها بلا ملامح، أو أنهم يختبئون خلف الأقنعة.. بيوتهم جحور مظلمة مثل جحور الفئران..

الفئران التي تتقافز بين صخور الكورنيش، لتُباغتك بعيون صغيرة ملتمعة، وفروة رمادية دكناء، قبل أن تقفز من صخرة إلى صخرة!..

مدينة للفئران والكلاب!!!..

وأنا الذي خلتها للغيم والعصافير والبحر والنخل والأحبّة؟!..

وأين هُم الأحبّة؟..

أيجب أن تكون مصائرنا مربوطة على الدوام بكلمة؟.. أوَيجب أن يظهر– من متن المواثيق والأحكام والقوانين والأوامر والقرارات والمراسيم والتشريعات– طواغيت؟.. أيجب أن يكون هناك دائمًا ضحيّة، في دوامة الأحداث التي تَلُفُّ العالم؟..

أعتقد أنه لابد لي أن أعترف، بأن ريحًا طيبة كانت تجري بشراعي ذلك اليوم.. شراع صغير لفلاّح شاب، اعتاد على الريح الهادئة للقرية، لكنه لم يعتد على عواصف وزوابع المدينة.

علمت –إذ تناهى إلى مسامعي– أننا خسرنا حربًا في (العراق)، وأن جنرالاً من أمريكا قد حضر إلى (بغداد) كي يقود المعركة، وأن حاكمًا تدعمه (واشنطن) كلها، قد تولى الأمور.

لكنني لم أكن أعلم أن فِرقــًا من الجُند كانت تعيث في البلدة كل صباح، يحملون فراشي الدهان باليد اليمنى، ودلاء باليسرى، يُغطّون بها الشعارات التي تنال من القادة الحاليين..

لقد استسلم العالم في النهاية لتولّي حاكم جديد أمور السُلطة.

* * *

ولن تبكي الأزهار على الشُرفات في أغسطس..

حتمًا لن تفعل، فأزهارٌ كثيرة تموت في أغسطس..

أنا وأنتِ.. مَنْ منّا كان الزهرة ومَنْ كان الحجر؟..

وهل تنبتُ الزهرة في قلب الحجر؟..

وأنا إلى أي حدٍّ اقتربتُ؟.. وخلف أي سور وقفت؟..

تبًّا لي إذ لم أعرفكِ.. تبًّا لي حين عرفتك..

كل هذه الأعوام بيننا، وجاءت البارحة لتكشف لي عن جهلي المريع بك.. أنتِ لستِ امرأة ولستِ ملاكًا، لا.. ولا شيطانًا، وأكادُ أجزم أنكِ لا تنتمين لهذا الكوكب..

لِمَ لَمْ تخبريني من أي مجرة جئتِ، فقط.. كي أعيد رفاتك، إلى المثوى الأخير؟!..

حبك جنون..

ممارسةٌ للعبث ذاته..

ولن يسبغوا عليك وشاح البطولة إلا إذا انقلبت الموازين، ووطأنا السماء بدل الأرض!

وإذا لم أكن قادرًا على أن أعذركِ فمن يفعل؟..

أإلى هذا الحد كنتِ قصيّة عني؟.. كنتِ غامضة ومُجلّلة بأسرار، اكتشفتُها بين القصاصات والأوراق التي أرسلتها قبل أيام، لتصلني البارحة؟..

* * *

– " هذا الجُرح يُعاود ترميم نفسه من جديد، ليعتَريني.. هذا الجُرح زمنٌ آخر أدخلُ فيه، فأكتشف أن ملامحه غير قابلة للفرح..

وأن كثيرًا من الخيْبة، قد بدأت تتراكم في مشاعري، وصرت أقيس خطواتي، بنظراتك التي تغتصب الحلم في عروقي.. وأنت مُكبَّل إلى الصمت..

كانت عيْناك تُلقيان حولي انفجارالهما، وتشعلان الحرائق دون ضجيج!!.. بل بصمت مطبق!.. صمت أليم..

صمت يبتلع العالم والحياة والحركة، في عينيْن تُغادران قلبي.. وتعودان إلى جسد لا يشبهك!..

أطلُّ عليك – أنا فتاتك الصغيرة – من خلف الباب المُوارب، كما لو كنت لا أصدق أنك هناك، لا زلت تمكث، وتسكن!!..

ولم أدرِ أن مواعيدَ ألعابك معي، قد انتهت!..

يسكُنني الشعور بالذنب، وأنا أتحرك على قدمين، تستفزان جُرحك.. وتزرعان الدمع في سحب عينيْك الغائمة، التي تظل تواصل هطولها في أعماقك، دون أن تمنحني فرصة أن نتقاسم الألم معًا..

أنت تتوسَّد أشواك الوحدة والبكاء..

صار السقف المضللّ بجسدك، مزرعة بيضاء لأفكارك السرية، التي راحت تنبُت فيه وتتدلّي أغصانها السوداء داخل رأسك..

ووحدك انفردت بما سكن ذلك السقف!..

ووحدك كنت تدخل عالمك السري الغامض، وتُبعدني عن كل ما يثير آلامي.. حتى لو كانت آلامك..

وعبثًا أُحاول أن أطال قلبك..

وأُسقط قناعتي بجدوى محاولاتي البائسة لاستردادك إليّ..

أرتِّب الوسائد الناعمة خلف رأسك، وأحتاج إلى من يرتِّب في أعماقي فوضى مشاعري المرتبكة..

تتناول من يدي طعامك، وتُفرِّغ قلبي من أحلامٍ كانت مكرَّسةً لأن تكون سعادتي الدائمة معك..

تمضي بي الأيام وأنا أحاول أن أتصالح معك..

أضغط على كفِّ الحزن في قلبك..

لكنك دائما تخذلني..

تعيد كفّي فارغة من حنانك ومودّة أيامك، مُغلِقًا على ذاكرة أيامنا الماضي..

أريد أن أتحدث مع ما افتقدته بك..

صِرتَ وجعي الدائم، وخروجي المعتاد مما كان احتفائي.. صرتُ أسكن غربتي فيك، بعد أن كُنتَ وطنًا لأحلامي، ينفتح لي ويرسمني في خرائطه غيمةً ماطرة.. أو شمسًا ضاحكة.. أو نجمة في ضوئها، ألفُ حكاية لأفلاكِها، التي تتناثر حولها، كأزهار مُطعَّمة بالفرح..

وكنت أنا السبب..

أعرف..

كما أعرف أني اكتشفت فيها أكثر من عمقٍ لمعنى السعادة، الذي خرج فجأة من داخل صفحات الكتب وسطورِ الفلاسفة والمُبدعين، ليصير وجهك.. وصوتك.. وكتاب قلبك..

وحُبّك..

لم تكن سعادة تلتحف الوهم..

كانت الحقيقة بوجهها الكامل غير المُضلِلّ ولا المَخفيّ..

كانت الحياة التي ندخل إليها، ونتبادل فيها لغة واضحة، بسيطة وتلقائية.. تقْبل علينا لتملأ مُفكّرة أحلامنا بتفاصيل سعادة، غير قابلة للتغيير!..

كانت عيْناك تُدثراني بالكلمات التي لا تغيّر معناها، ولا تأتي بأكثر مما توحي به!..

الحب..

كانت قامتكَ في داخلي تتسامى، والغناء العذب الذي تغرسه أحلامك فيّ، حقول تروي أفكارنا بماء الحبِّ، وشمس التفاهم!..

لكني أضعت كل هذا من يدي..

أعترف!..

والآن، لم يعد لكلّ تلك الأشياء قيمة لتأخذني من حُطامي وتُرمّمني بك!.. وصارت تلك الأحلام تُبكيني- كما أضحكَتني بذاك العمق

نفسه..

وبذات الاندفاع الذي كان يجعلني أكتسي بألوان مُراوِغة، لا تمنح لونها الصريح، مُمتزجة بأكثر من لون للبهجة، راكضة إلى مساحة لونيّة شاسعة لأفقٍ يعبرني!

صارت تلك الأيام استفزازًا دائمًا لذاكرتي معك، وقصيدة موجوعة أحتفظ بها في أدراج أعماقي، وأقرأها على العتمة التي تطوّقني، لعل سقف أعماقي ينفتح وتدخل الشمس المُغادرة.

هل كنت تعي عندئذٍ، أن غضبك كان يتلبَّسني بأكثر من خيْبة..

وأني كنت أرمي في براكينه المتأججة ما بقيَ لي من أمان..

كنتَ عمري بأكمله..

آآآآآآآآآآآه يا حبيبِي..

لم أعد أدري، مَن تلك التي بإمكانها أن تسكنكَ بعدي بكل ذاك الزخم الهائل من السقوط؟..

والانكسار!!..

والحزن!..

وأيُّ أرض تلك، التي يمكن أن تحتمل حطام أحلامك فوقها!..

الآن أنا امرأةٌ بحبٍّ ضائع!..

بحبٍّ يستلقي أمامي، ويرمي لي قطعًا ثلجيّة مُتكسِّرة، كانت فيما مضى نظراتك!..

الآن أُلقي عن قلبي دثاره..

وأُعلّقه زمنًا آخر على قلب، لم يعد ينفرد بي.. منذ أن صار مشغولاً بموته!!

الآن أمشي بعيدًا عن استلقائك- بطريقين مختلفين، رغم أن الهدف يبدو واحدًا- أطوف حول ذلك الهدف بقلبٍ غائب، أسترقُّ الإحساس إلى أحلامنا الصغيرة، وهي تدخل في غيبوبةٍ من النسيان!..

لا زلت تصرُّ علي أن تُبقيني خارج ذاكرة أحزانك؟!..

عالَمٌ من الرثاء يسكنك، وأنت مشدود إلى الاستلقاء دون خيار!..

ولولا إيمانك بالله عزَّ وجل، لكان يمكن أن يخرج منك رجلٌ مسكون بالجنون، ولكان يمكن أن يخرج شبابي وجمالي أخيرًا من منعطف الصبر الذي ألفُه حولي طويلاً، وأشدُّ عليه بقوة حبك، لأتقي به من

العواطف المتضاربة داخلي..

حتى مرآتي وأدوات زينتي، أغلقتُ عليها حقيبتي منذ زمن بعيد، عندما تضاءل شعوري بأنوثتي.. وصار القيام بتكفيري عن ذنوبي التي لا تُحصى نحوك، همّي الوحيد..

لمن أتزيَّن؟.. وعيناك اللتان طالما أهملتهما، ضاعتا مني الآن!.. اصطدم بهما كلما اقتربتُ منك..

وصوتك صارَ صحراء حزنٍ، ينبت عُشبًا من الخيْبات!..

أجئ إليك حاملة قلبي في كفي.. إني أُحبك.. أحتاجك..

لم أدرِ إلا بعدما فقدتك..

لماذا أحالتني عيناك الغائمتان إلى قلبِ بشاربيْن!!.. كيف صار صوتي باردًا ومُحايدًا هكذا!.. كل الجَمرات التي كانت تتّقد في عروقي عندما كان صوتك شمس المسرّات.. وبراكين الحبِّ.. وقامة الجمال.. تلك الجمرات المُتقدة، انطفَأت في جليد مشاعرك الواهنة..

صار قلبك بركة من الأحاسيس الأخيرة.. وأنا أصنع من ركضي فِخاخًا، أقع فيها وأنهض من جديد، لأقع ثانيةً.. كأنني أنصب تلك الفِخاخ لتسرق كل جزءٍ حميميٍّ مني..

كنت أتحايل على عمري.. وضحكاتي.. وجنون أفراحي.. علّقتُ الحبَّ في خزانة الهرولة باتجاه كل الأشياء، ما عدا قلبي.. تصورتُ طويلاً أن أنوثتي بيد الرجال وعيونهم.. وعندما بكى قلبي طويلاً، أدركت أن أنوثتي.. أنتَ صانعها!..

فيَا حبي المُستلقي هناك دون حِراك، أقبل عليَّ بقلب من الأحلام.. لم يعد يهم كثيرًا أن تقف إلى جواري بجسد مُعافى.. المهم أن تبقى في داخلي حُبًّا مُعافى!..

ويهمني كثيرًا، رجاءً..

أن تسامحني! "

* * *

آآآآآآه..

إن الذين يُخطئون ويعترفون بأخطائهم حُكماء، والتراجع عن الخطأ ليس فضيلة فقط.. هو أيضًا قوّةٌ ونُبل..

وأنتِ لم ولن تكوني حكيمة أبدًا، ولا قويّة أو نبيلة!..

ما أضعفكِ!.. وما أتفه الدنيا!..

أعرفُ أن السماء ضياؤكِ، ولست أستطيع أن أرى.. ولست أفهمك..

لكني أحبّك..

فهل تقبلين الهوى مُضنكًا ذابلاً؟..

أنا أرتضيه..

إن أردتِ قتلي، فاقتليني.. وقولي إني أُحبُك.. لكن لا ترْثِيني!..

قتلتِني.. من أجل أن ترْثِيني؟!!..

إذًا لماذا تُحبِّيني؟..

وهل لا يجوز الرثاء شرعًا، إلاّ بمَنْ مات مرتين؟..

إذا سامحيِني.. سأقتلني، وبسيف روحي، ولكن.. لن أسمح لكِ أن تُحييني.. فأنا سعيدٌ بموتي، وليس لكِ حقٌّ–بعد الموت – أن تُحييني.

سأشنقني تحت هذي الشجرة، في (ليلة القدر).. شجرة الحنين.. زَرعْتِها لي، حين أردتِ أن تُحييني.. فاخترتُ أن أموت بظلها، حتى يتساقط الياسمين على جبيني، وتنتشي روحي برائحة جلاّديني!

وأسألك بالله..

أسألك بالله ألا تهدي لغيري ياسميني..

اهجريني..

شرِّديني..

دمِّريني..

اقتليني..

فإنكِ بالأخير تُرسليني إلى عالمٍ أمضيت به كل سنيني!!

لكن أبدًا لا تُهدي لغيري ياسَميني.

دقيقتان.. ساعتان.. أو شهران..

أمضيتهم بوطنٍ، قد أغمضت عليه عينيَّ، لن تستطيعي أن تأخذيه مني، حتى لو تقتليني.. اقتليني.. ولا ترْثِيني!.. فأنا سترثِيني دروبٌ مشيناها، و دموعٌ قُيِّدَت ضد مجهول..

وذاك الفتى الخجول، الذي كانت نظرته، تُعزّيني.. هل أَخبَرهُ أباهُ يا تُرى بأمر الياسَمين؟..

سأقتلني.. وبسيف روحي، ووصيَّتي.. ألا تُهدي الياسَمين..

فلا أريد لأحدٍ بعد الموت، أن يُشاركني ياسَميني.

لكني أُحب رثاءَك.. إني أُحب حديثك.. فلا ولن أزرع الزهور إلاّ على صدرك..

اسأليني عن طعم فراق الروح للجسد.. اسأليني عن نوم الضريح، فوق أقلام الهوى.. وعن قسوة الرثاء.. ودمع الصابر الجَلد.

آمنت بأنك واحدة.. بترابي جذورك والأغصان.. لم أشرك بالله.. أبدًا.. حُبكِ طهرني.. فيَا حبًّا علمني الإيمان، فلنهذي معًا من حُمّى فراق.. فراق روح لجسد..وفراق روحٍ من روح.. وكلُه فراق!.

أُعلِن رحيل الشمس وقدوم الليل.. لتُعيد الروح لكهف عجزت أن تعرف متاهاته..

مجانين أنتن أيتها النساء، تقتلن ثم تبادرن بالشكوى والاحتجاج..

لن يستطيع رجل أن يفهم امرأة قط..

تقتل امرأة رجلاً تحبه، لأجل أن ترْثِيه؟..

أم الحبُّ عند المرأة لعبة تملّها..

كلمة تقولها..

وهديةٌ مُهداة لها فتُهديها؟..

لن يفهم رجل امرأةً أبدًا..

لأنه لن تستطيع إمرأةٌ أبدًا، أن تهوى كما يهوى الرجل!..

فنحن الرجال.. الحب لدينا ليس بألعوبة، نرميها خلف العتَبات.. ونغادر نبحث عن حب، حين نشاء!.. مكتوبٌ علينا في زمن الحمقى، من أخفق في الحب يعيده.. فلا ترْثيني.. أخشى على عينيْكِ جريان وحُرقة دمعكِ!.. أخشى على بسمتك أن تشحُب..

أو ارثِيني..

دمِّريني.. اقتليني..

لكن أبدًا لا تُهدي لغيْري ياسَميني.

* * *

وقبل البارحة فقط كنت أفكر فيكِ بحميميّة أفزعتني قليلاً..

لم يحدث أن ألحَّ عليَّ خاطرُ رؤيتك من قبل بمثل هذه الطريقة، وكانت صورنا في (مطروح) –الفردوس المفقود– أمامي على المكتب.. اتصلتُ بك.. كنت أريد أن أقول لك:

– ما رأيك أن نذهب إلى الفردوس المفقود؟.

وكنت أتخيل أنك ستضحكين -رغم أنك ما عدتِ تضحكين كثيرًا في الفترة الأخيرة- ثُمَّ تقولين:

- ولِمَ لا؟

* * *

(٥)

قلتُ إني مجهد، وأبحث عن مكان أستريح فيه..

قال الرجل:

– أعرف امرأةً تؤجر للطلاب شقتها شتاءً، وللمُصطافين في فصل الصيف.. والشقة خالية هذه الأيام.

تساءلت:

– وموقعها؟

رد الرجل بسرعة وثقة:

–أمام البحر مباشرة.

كنا في الشتاء، وشوارع (الإسكندرية) على مرمى البصر خاوية؛

ومصقولة بطبقة شفافة من قطرات المطر، والبحر متداخل مع الأفق..

موحٍ بالسِحر، ومنطو على الأسرار..

كنت أبحث عن مكان أستريح فيه، فأسلمت قيادي للرجل..

البحر، والأمواج المتلاطمة، والريح النظيفة العنيفة، التي تأسر النَفس.. التوّاقة إلى التلاشي.. وضوء النهار ينضوي في الحزن..

ما أبدع الكوْن وما أتعس البشر..

ورحت أستجلي سِحر الطبيعة الربّاني.

* * *

ضامرة العود، يُعبّر وجهها الجاف عن شقاء مزمن، ولكن نبرة صوتها تدل على طيبة وسماحة خلق..

حَسَمَت مسألة النقود بكلمة واحدة، ولم أجادلها.. طبعي من الأساس يكره المجادلة، بالإضافة إلى أن شيئًا خفيًّا في صوتها، جعلني أقبل أن أدفع لها المبلغ الذي طلَبت..

عَلّي أكْبرتُ هذا الصدق الذي أطلّ عليّ من صفحة وجهها، فدفعت لها النقود، ومنحت الرجل الذي قادني إليها مكافأته.

-أسبوعًا؟

أجبتها أن نعم، ولكنها عادت تسأل دون أن تتوقف:

-إجازة؟

همهمتُ بكلام غير واضح، فدقّت على صدرها، وقالت بلوْم لنفسها:

– لا تؤاخذني.. نسيتُ أننا في الشتاء!

ثم غمغمت:

– دماغي أصابه الـــخَرف.. إن مدينتا هذه مظلومة.. يظنونها سيئة في الشتاء بسبب البرد والمطر، فلا يأتونها للنـــزهة إلا صيفًا.

سحبتني عبارتها تلك من ابتعادي، فالتفت إليها رغمًا عني.. رُحت أتطلع إليها صامتًا، أبتغي إخراج هذا الشيء الطيّب المُحاط بالغموض، الذي أطلّ عليّ من فوق صفحة وجهها..

واجهتني بشجاعة كالتحدّي، وأكملت:

-ولكنهم إن أمعنوا النظر، سيعرفون أنها أجمل مدينة في الدنيا، صيفًا وشتاءً.

من خلف حُزني الدفين، ابتهج قلبي.. ابتسمت وقلت لها، كأني أربت على كتفها بِوُدٍّ:

–ليسوا كلهم.. صدقيني.

وكنت أقول في نفسي أن هناك من يحبّون بحر الشتاء المُنعَم بالسحر، ويعشقون المطر، ويحلمون بالتلاشي وسط عنفوان الريح..

وأنا منهم..

وكأني منحتها إجازة بالإسهاب، إذ اندفعت في صخب فطري تُطري جمال مدينتها الساحلية، وتُهاجم الذين يقلّلون من شأنها.. استمعت إليها وقتًا طويلاً..

تحمّلتها، مثلما يتحمل الأب طفله البريء المُمتلئ بالحماس..

أخيرًا وضعت منقولاتي في المكان الذي حدَّدتهُ لي، وخرجتُ إلى البحر أستعيد أسراري..

وأبحثُ فيه عن الخلاص..

* * *

يبدو أنني صرختُ، لدى مُغادرتي المقهى يوم فراقنا:

-"يحيا (صدام حسين)"..

في الحال ألقى شرطي القبض عليْ، وقالوا فيما بعد أنني كنتُ أنوي إشعال مظاهرة..

في الصباح التالي، استيقظت على صوت صَفير السياط في زنزانة بقسم الشرطة، وتلقيت الجرعة المعهودة، فصرخت:

- "يحيا الرئيس (جورج بوش)".

بدايةً ندَّت عني مُصادفةً، لكنني أخذت أتقصّدها فيما بعد.. لا فائدة.. ذهبت كلماتي أدراج الرياح..

سمعني رجل الشرطة أصرخ "يحيا (بوش)"، لكن جلاّدي لم يسمعني أصرخ "يحيا الرئيس (جورج بوش)"..

كان يضربني بقسوة، كما لو كان يضربُ قطعةً من الخشب..

لم يعد بمقدوري احتمال ذلك فطَفَقْتُ أغني، والكلمات تخرج من فمي مُتقطّعة..

* * *

" لا تُصغوا للكراهية بعد الآن، تطلّعوا إلى المستقبل، ولتكن لدينا

الثقة في قَدَرٍ جديد.. لأن "بوش" هو العالم، والعالم هو "بوش".

* * *

كان جلاّدي يتصبب عرقـًا، فيما كان ظهري قد أضحى أشلاء.. لذا أمسكتُ لساني، وأخذت أتجرّع مرارتي بصمت..

هذا الصمت الذي أغضب رجال الشرطة.

كفرصة أخيرة أغتنمُها انطلقتُ أُنشد السلام الوطني.. لا فائدة.. لقد دفع هذا بجلاّديَّ إلى قمة غضبهم، إذ أصبح ثلاثة منهم الآن يتولون مهمة تعذيبي..

إذًا عليَّ أن أعترف أنني (بوشيْ)..

(بوشيْ) تابع لمن؟.. (بوشيْ) بأي شكل؟.. بل ما هي (البوشيّة) أصلاً؟.. هل كانت للبوشيّين أسنانٌ أطول، أو أيادٍ أقصر، أو حتى فَهمٌ أوسع؟.. هل كانوا من فرنسا أم من إيطاليا أم من إنجلترا أم من روسيا أم من أمريكا أم... ؟..

ما الفائدة من طرح كل هذه الأسئلة على مسكينٍ من ضفاف الشعب مثلي؟..

لم أعد أدري مَن بإمكانه إنقاذي، مادام "النشيد الوطني" فَقَدَ

قدرته على مساعدتي في الخروج من هذا المأزق.

كنتُ أفكر بصعوبة، عندما فُتح الباب فجأة، مما جعله يرتطم برأسي..و توقف جلاديَّ في وضعية استعداد، انتظارًا للأوامر.

* * *

راقبتُ الساقي وهو يسعى نحوي مُتمهّلاً، وكأنه يزحف..

الحزن في الموانئ مُتعدّد الأشكال؛ ما بين شجون المنفى، وقلق الانتظار..

والساقي حزين لأنه لا يكسب المال الذي يكفيه، أما أنا فحزني يشبه هذا البحر المُتداخل في الأفق..

مرَّ تيارٌ بارد بالقرب من وجهي فهزّتني رجفة، وارتعَشْت..

قال الساقي – الذي كان قد وصل إليّ:

– الليل يوشك على الدخول.. هل أغلق النافذة؟

شكرته رافضًا، وطلبت قهوة..

بعد قليل وعلى رشفات القهوة المُرّة، بدأت أتساءل:

– أهي رغبةٌ دفينة في الموت؟.. ما الذي أتى بي إلى هنا حقيقة؟..

وما الذي استهدفه.. وإلى متى؟..

طفح الكيل، فتركتُ البيت والشارع والمدينة..

ولكن أيمكن أن يكون هذا هو العلاج؟..

يا له من غروب هبط كالقدر..

والليل يهجم متوغلاً بما يحمل في طياته من أسى ورهبة، فأشعر في نفسي لوعة ووحشة..

كم مرّة طلبتُ منها أن تفهمني..

قلتُ لها أن الحياة ليست عطرًا، وملابس عارية، وشقة فخيمة، ونزهات، وضحكات.. الحياة قبل هذا—وفوق هذا—غاياتٌ عُظمى، وتأمّل راقٍ، وكفاح نبيل..

هيَ الحلو والمُرْ معًا..

لكنها كانت تقول إني حالم وساذج، وتُلقي بي وسط زحام من الغربة.. كنت أقول أنها تفهم الحَداثة فهمًا خاطئًا، فكانت تلطمني بتهمة التخلّف..

وفي المرة الأخيرة قال أبوها: "اصبر عليها، فلا زالت صغيرة"..

لكن صبري كان قد نَفِذ..

ومثل هذا البحر المُترامي في العَتْمة، ووراء الأفق تمدَّدَت شجوني..

وذكرياتي..

* * *

" تمنيتُ أن أكون سيدةً للألوان، وأميرةً للرجال، ومملكةً للعاشقين..

تحكي الدنيا حكاياتي..

أما اليوم، وأنا آخذ بأخبار الذكرى.. أجتثُّ مرارة الرحيل، وأقف على قوابل الأمر.. تأسرني لحظاتٌ مُربِكة، وأمانٍ غائمة.. أُبدِّد ذهول الماضي، بشرود اللحظة..

أقاسم بقاءً لا أستطيعه، بغدٍ أنتظره، ولا أودّه أن يأتي..

ساوَمْتك بصدقك، ولم أجد إلا صمتك، في موعد تحرّقت هواجِره.. سألتكَ بحق ميلاد النبضة الأولى.. بحق الشرايين المُشتعلة.. بحق حلمٍ توهَّج في ليل!..

بحق بوح قاتل، أغرق أوْردتي المتوجِّعة..

بحق اندهاش الفجر، تحتَ سماواتٍ بعيدة.. وشموسٌ، في زمن الرمح وليل البارود وبندقية الموت..

كَسَرَتْ أضلُعي بموعدٍ قديم، ظننت أنه ربما يعود..

وبَعْدَك.. حاصر البرد أصابعي..

أصْبَحَتْ أعمدةً ثلجيّة، تجوس في ذكرياتي..

بحثتُ عن تجاوبات الرمال، واستفهامات الهروب..

عن أشياء فُقِدَت.. قد لا تعود!..

هو الانتظار، ولا شيء غير الانتظار الكَذوب، يقتادني إلى آفاق لا تعرف إبحاراتي..

أعرفُ إحساسًا مُتعبًا يلوك قامتي!.. تتجاذبني آراءٌ مضطربة، وعزيمة عمياء..

أُلملم رفاتًا.. حُطامًا.. هشيمًا.. فُتاتًا.. أجداثًا انسَحَقَت.. نداءات للرجوع، واستغاثاتٍ عمياء من داخل القلب، تمطرُها الذكرى بوابلٍ القادم الأجمل..

يدي المُتردّدة، تمتد إليكِ تستجديكِ.. ليس بوسعي أن أقاومكِ،

ولكبريائي صوْتٌ، ما استطعت تغييبه أبدًا..

أبدًا..

فررتُ من هواجس الضعف.. بحثتُ عن عنوانيّة الكذب..

عن وجود غابْ، وحزنٍ طريد، لعلي أهزم جحافل الجرح من بعد ما فقدتكِ، فلم أجدا!..

أطلب منك استعادة الخَفَقات النقيّة، الخائفة من مَداراتها المُعتمة، حين انتشرت وَحدي في ليلٍ مُقيم بظلمته، لأحكي بعدك أبجديّة الضياع، وأغرق بامتلاء ينغرس في جفوني..

رفقًا بقلبي سيدي..

الآن أعترف: أنتَ سيدي..

سطعتْ نارٌ- لا أدري- أم غبار، ولم أكن التي كنت-كما تحفَظ- مُستبدّةً بسلطاني..

أرتحِل بقسوة تمقــُتها.. بكَذبٍ تكرهه..

أطالبك بأن تسامحني ولا ترحل!..

ابحَث معي – أرجوك – عن أشياءٍ قُتلَت فيّ..

عن حزنٍ يلوحُ في عينيْ، كنتَ تشعره وترجوني أن أحكيه.. فأُداريه!..

اليوم.. أرجوك أن تتركني أرْوِيه!..

لا..

لم يفت الأوانُ بعد..

طالما تركتني أحدِّد المكان والزمان والحدث.. فاحتملني مثلما كنت دومًا تفعل..

وابحَث معي عن ارتواءٍ عشقته من الفجر بعد ليل طال، كنت فيه المُميّز..

زمن الانتظار – سيّدي– لابد أن يرحل ليجرف أعماقًا عرّاها الصمت وأصداها العَراء، في ليلةٍ ماطرة بالرحيل..

أرفع أزميلي.. أنحتُ الصدأ.. أتحسَّس قلبي..

هل لا زلتُ أعيش، أم أنا ميّتة في دماء ذلك الجمود المريع الحاضر في عينيك، يومَ أن أرخى علينا الرحيل أستارًا حديديّة؟..

عدتُ إليك مع المطر، أنشر عليك دفء الرجاء الأخير!

انظر بربك كيف قتلتَ كبريائي، ووطأتُ بأقدامي قُرنفلات عِنادي، ونكّست رايات خِصامي..

انظُر، كيف صادرتَ جنوني وجعلت سِيَاط الوهم لا تقتل حبي.. راجيةً ألاّ أكون سيدة الهَباء التي سحقها وَلَهْ الأنوثة!".

* * *

(٦)

أفَقتُ لأجد أن جلستي قد طالت في المقهى المهجور عند شاطئ البحر، تحت أضوائه الشاحبة، بالقرب من النافذة التي ينفُذ منها الصقيع..

ومرّ تيارٌ بارد جديد، أشدُّ قسوة مما سبقه..

هذه المرة ارتعَشْتُ حتى أحسسْتُ بقلبي يكاد ينخلع..

لملَمتُ نفسي ونهضت..

غادرتُ المقهى، عائدًا إلى الشقة والمرأة الطيّبة الثرثارة..

وفي طريق عودتي، كنت أقاوم إحساسًا مُتناميًا بالوَحشة والهزيمة.

* * *

هشّت في وجهي حين طالعتني من فُرجة الباب، ثم قالت:

– ما الذي أبقاك خارجًا في كل هذا البرد؟

كانت تُخاطبني وكأنها تعرفني منذ سنوات، وقد تلفّحَت بشال أزرق قديم أضفى عليها جلالاً مُبسّطًا..

شيء ما، جعلني أقف أمامها صامتًا في خشوع، وقد أيقظ أمي من سُباتها العميق، على حين لم تنتظر هي إجابتي، وقالت:

– تعالَ شاهد معي التلفاز.

أفقتُ من شرودي، وقد تذكرت أمي الحبيبة تُطالبني بالشيء ذاته.. ورأيتها تندفع نحو المطبخ قبل أن أُعلن قبولي أو اعتذاري، فوجدت نفسي وحيدًا داخل صالة الرُدهة الفسيحة. بعد لحظة عادت تحمل كوبيْن مُمتلئيْن بالشراب القُرمزي، يتصاعد منهما بخار يشيع الدفء، وقالت وهي تُناولني أحدهما:

–الوحدة قاسية..

ومع رشفات "العنّاب" الساخن، وشغب الجهاز الذي يعلن مصائب العالم، فتحت لي صدرها ببساطة، وحكت لي قصتها مع زوجها، مُدمِن الخمر والقمار:

– خرّب كل شيء، ولو لم أُصرّ على الطلاق ما كان قد بقيَ لي

شيء.. حتى هذه الشقة التي أعيش منها، يأتيني إليها جائعًا ومُفلسًا، فيأكل ويأخذ ما تسمح به الظروف.. الطيّبات لله.. أهله أنفسهم لا يطيقونه، لكن العِشرة لا تهون إلا على ابن الحرام.

-ولماذا لم تتزوجي غيره؟

- لا.. جربت نصيبي.. ولم يعد في العمر ما يستحق.

قلتُ لنفسي إن الحياة ما تزال مليئة بعنادِ حقٍ وصدقٍ، وليت الآخرين يرون ويفهمون.

في التلفاز، يتابع مذيع الأخبار- بابتسامة سخيفة- هذا النبأ:

-"... ومثل أية طالبة مجتهدة، لم تتخلف (آيات) عن دوامها المدرسي في مدرسة بنات (أرطاس) الثانوية بـ(فلسطين)، وذهبت (آيات) الطالبة في الصف الثاني الثانوي إلى المدرسة، رغم أن اليوم هو الجمعة وعطلة رسمية، التزامًا منها ببرنامج تعويضيّ أعدته مديرية التربية في محافظة بيت لحم لتعويض الطلبة عن ما فاتهم من دوام، خلال الغزو الاحتلالي.. وأكّدت زميلات لـ(آيات) بأنها التزمت بالدوام حتى آخر لحظة، وقدّمت امتحانًا، كانت علامتها فيه كاملة، وعندما غادرت زميلاتها إلى بيوتهن، تخلّفت عن العودة معهن، قائلة إن لديها عمل تريد أن تنجزه.. ولم تكن هناك أية شواهد على نوعية هذا العمل، سوى ما قامت به من احتضان

إحدى زميلاتها وكأنها تودّعها الوداع الأخير. وتتذكّر زميلاتها شاهدًا آخر أكثر وضوحًا، عندما قامت (آيات) بتعليق صورة الاستشهادي (محمد ضراغمة) على أحد جدران الصف، وطلبت من زميلاتها أن يعلقن صورتها إذا حدث واستشهدت قبالة صورة (ضراغمة) تمامًا. ولاحظت بعض زميلاتها بأنها انشغلت بالكتابة على ورقة وأخفت ذلك عن زميلاتها اللواتي طلبن بدافع الفضول معرفة ما تخطه، وضحكت الزميلات على خيال (آيات) المفرط، ولكن بعد أن استشهدت، علقن صورتها قبالة صورة (ضراغمة) وهن يبكين."

زأرت عاصفةٌ من البرق والرعد والمطر خارج البيت..

"عفوًا.. أنا مُتعَب ومحتاج إلى الراحة."

وتركتُها تودّعني بكلمات تحيّة طيّبة، ودخلت إلى الحجرة التي خصصتها لي، وأغلقت الباب ورائي.

وتعالى صوت العاصفة، حتى أحسستُ أنها ستقتلع المكان.

* * *

حين أقبل الصباح، صفا الجو بصورة باهرة ونثرت الشمس خيوطًا من أشعة محملة بدفءٍ حنون وخَلت السماء من الغيوم وبدت ناصعة مثل وجه طفل..

وقفت أتطلع من نافذة الحجرة المفتوحة على مصراعيها، إلى كل ذلك الجمال الإلهي في السماء، وكان قراري الذي عزمت عليه خلال الليل يترشّح ويتعمّق.. حزمت متاعي، ووقفت حينًا وسط الحجرة أتأمل المكان الذي أصبح جزءً مُتناهي الصغر من تاريخي ولكنه شديد الأهمية وحافل بالفَهم والمعنى..

لحظة خروجي من حُجرتي شاهدتُ المرأة الطيبة تدور في صالة البيت، وكأنها كانت تنتظرني..

توقَفت أول ما شاهدتني، وتهيّأت لتحية الصباح، ولكنها بدت كما لو كانت فوجئت، ورأيتها تنظر إلى حقيبتي، وتسألني في نبرة لا تخلو من بعض القلق:

–إلى أين؟

أجبتها، وأنا أبتسم في وجهها:

–مُسافر.. لابد من العودة.

تحشرَجَت الكلمات في حلقها وهي تقول:

–ولكنك لم تقض سوى ليلة واحدة.

–كانت فيها الكفاية.. كنت في حاجة للراحة، وارتحت.

-دفعت إيجار أسبوع كامل.

-تستحقين أكثر منه.

وسرىَ من حولي وحولها صمت شفاف..

-أراكِ على خير.

-مع السلامة.. عُد مع زوجتك.

* * *

أمَرَ بملابسي أن تُرَدَّ إلي، وقالَ ببرود:

- "اذهب الآن.. أنت حر".

أمعقول هذا؟.. أصحيح أنني حر، وبإمكاني المُغادرة؟.

تجمّدت في مكاني مُندهشًا، مُحدّقًا إلى لا شيء.. لا أصدّق!..

لقد أصبحتُ حُرًّا.

انفجرت بضحكة طويلة مُرتفعة، صاخبة وهستيريّة، لابد أنهم ظنوا أن جنونًا قد مسّني إذ رموا بي إلى الخارج بقسوة.

جميلة هي الحياة، لكننا نضيّعها لأننا لا نعرف قيمتها دائمًا.

وكل امرئٍ يُحب الحياة يجب أن يُقدس الحرية.

خرجت من القسم، وظلال أوراق الشجر المتنوّعة، وألوان الأزهار المُتلألئة، وألوان البيوت، والتماع أوراق النباتات تحت أشعة الشمس، أبواق السيارات، وضجّة راكبي الدرّاجات، صهيل الخيول، وأجراس الحمير الرنّانة، استهتار بعض النسوة وسرعة الأُخريات، الحيوية..

كل هذه الأشياء أعادتني للحياة وجعلتني أُدرك فجأة ضآلة المكان الذي كنت فيه..

شعرتُ بنفسي كما لو كنتُ غريبًا عن البلدة، وأنا مأخوذ وغارق تقريبًا في كل هذه المشاعر والانطباعات.

أخيرًا، احتلت الوجوه الودودة التي طالعتني، ومظاهر الفرح، ساحة تفكيري.. تجمّدت في تلك البقعة.. أحسست بأني أغرق في لُجّة هذه المشاعر إن أنا أقدمت على أيّة حركة.

أُغلق ورائي الباب للمرة الثانية، شابّات الجامعة يمرحن حول تمثال (نهضة مصر)، وباعة الفول السوداني، صنّاع الأحذية، المطاعم الرخيصة التي يتصاعد منها الدخان، دكاكين ملأى بالبضائع.. انتشيْتُ بكل هذه المناظر التي بدأت أستوعبها.

لست أدري كم مرة ملأتُ رئتي بالهواء النظيف وأنا أدق على صدري كما لو كنت أبغي إدخال العالم كله إليه، وكل نسائم العالم، وكل طيب الأزهار، بل كل السحر الذي يحيط بي.

كانت العصافير تُزقزق، والطيور المُتشبّثة بأعشاشها بمخالبها كانت تُغرّد، الثمار كانت على وشك النضج، الشمس والظل، الماء وألوان السماء، العُذوبة والحريّة..

ما الذي يريده مقهور سابق أكثر من هذا لتدخل السعادة قلبه؟.

أيّة أغنية يمكن أن تنطلق من فمي سوى تلك التي كانت تمثل يومًا ما الروتين اليومي؟..

وهكذا–وبشكل لا شعوري– أنشأت أغني: "*وطني حبيبي الوطن الأكبر.. يوم عن يوم امجاده بتكبر*".

كان الناس ينظرون إليَّ وهم يبتسمون.. لا يمكن لكثير من الناس أن يكونوا في سعادتي حينها.. لابد أن يتمتع الفرد بحظ خارق ليُغادر السجن هذه الأيام.

* * *

حملتُ معي جسدًا– أثقلته الهموم– ورَحلْت..

لم أكن ليلاً يجترّ السواد، ولم أكن نقشًا، نُقشَ بكآبة السنين..

وقرار الرحلة ليس سهلاً، كي أكتفي بمجرد نظرة وداعٍ أخيرة، لكل الوجوه التي ألفتها.. أضع جسدي بين كل ذلك الرُكام البشري.. تغصُّ الساحة بالحافلات وهموم الناس!..

الأرض والبرد والأجساد الهزيلة..

والليل يصحو ويُمطرهم بالأرق..

انتظر ذاك الصوت الصاخب، عبر مكبّر صوت يتوسط الساحة، ليُعلن وقت الرحيل..

الساحة تعج بالسيّارات المختلفة..

صخب..

أحمل جسدي، وحقيبة تحوي ملامحي– تلك التي أرغب أن يراني من خلالها الناس..

–" *ما الذي أتى بك إلى هنا؟*"

وقفتُ حائرًا عند ذلك السؤال..

كل ما أتذكّره أني استيقظت مُبكرًا، وحملت حقيبة سفري وأتيت إلى هنا، حيث تنطلق الحافلات إلى جهات مختلفة، خارج المدينة..

* * *

(٧)

بعد أكثر من أربعين يومًا على استشهاد (آيات)، كنت يوم الجمعة (٢٤/٥/٢٠٠٢) أخطو نحو منزل أبو (سمير)، بعد انسحاب الاحتلال الصهيوني الجزئي من المنطقة. وكنت أود الجلوس معه منفردًا بعد غياب ظروف المفاجأة الضاغطة عليه، هذا إذا كان يمكن أن تغيب، التي أسمّيها من باب التخفيف "مفاجأة"!..

وفي الطريق إلى منزله في مخيم (الدهيشة) قرب مدينة بيت لحم، كان السؤال الداخلي ما يزال يلحّ عليّ طوال الأيام الماضية.. أيام الحصار والدم والألم.. هل كان يجب أن تستشهد، (آيات)، الطالبة المجتهدة ابنة السابعة عشر دفاعًا عن كرامة هذه الأمة؟؟

وما هي هذه الأمة التي تحتاج لـ(آيات) كي تدافع عن كرامتها؟.. هل أمة بهذا الشكل بقي لها أدنى كرامة، لتقوم (آيات)، أو غيرها

بالدفاع عنها؟؟

وأمة كهذه، هل تستحق أن تدافع عن شرفها (آيات)؟.. وأي شرف هذا الذي ستدافع عنه!..

كان ذلك في يوم الجمعة ٢٠٠٢/٣/٢٩م، عندما غابت (آيات)، وإلى الأبد، عن شوارع المخيم!..

كان العرب الرسميون قد عقدوا قمة تاريخية لمناقشة قضية فلسطين، والتصعيد الصهيوني غير المسبوق خلال انتفاضة الأقصى، التي كانت تخطو في شهرها الثامن عشر، وكان مقرّرًا للقمة التاريخية أن تستمع لرئيس السلطة الفلسطينية المحاصر في مقره في رام الله، يلقي كلمة افتتاحية عبر الأقمار الصناعية، ولكن تدخلات عربية رسمية منعت (عرفات) من إلقاء كلمته، وبحث الرسميون مبادرة سلام عربية جديدة، وأقرّوها، في وسط أجواء القمع الصهيوني والبلاهة العربية.

وفي المؤتمر الصحافي الذي عقد في ختام القمة التاريخية سأل صحافي أجنبي:

– أنا مندهش.. (شارون) أعلن أمس عن خططه التوسعية وتمسّكه بسياسته ورفضه لمبادرتكم، فما معنى هذه المبادرة أصلاً؟!

وسأل آخرون:

– ماذا لو رفضت (إسرائيل) مبادرتكم؟ ماذا ستفعلون؟ هل ستفرضونها بالقوة، ما هو بديلكم؟!..

وخرج صحافيو الأنظمة يبشّرون بعهد جديد.. أخذت فيه الأنظمة المبادرة ولم تنزل لمستوى مطالب شعوبها، وأنها لم تعد تحتكم للشارع الغوغائي!..

وما كاد المؤتمر التاريخي ينهي أعماله، وينسى صحافيو الأنظمة ما قالوه، حتى كان رد مجرم الحرب (شارون) عنيفًا وغير مسبوق، ببدء حملة أسماها (السور الواقي) في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧م، وبدأ حربًا لم تشهدها تلك الأراضي في تاريخها.

وتقدّمت دبابات الاحتلال إلى مقرّ (عرفات) الذي كان محاصرًا منذ أشهر وبدأت باقتحامه وسط أجواء ترقّب ومتابعة شعبية عربية، وصمت رسمي عربي..

وفي هذه الأجواء حضرت (آيات)..

الفضائيات العربية، كل وسائل الإعلام، مراكز صنع القرار في العالم، الرئيس الأمريكي (بوش).. اتجهت بأنظارها إلى هناك، إلى حي

(كريات أوفيل) الاستيطاني بالقدس الغربية، والعملية الاستشهادية.. إلى (آيات).

بعد أقلّ من ساعة على الإرباك الذي أصاب "(شارون)"، مما حدث في "كريات أوفيل"، بدأت أصوات الرصاص تلعلع في مخيم ((الدهيشة))، وتعلو الزغاريد!..

كان الفتيان والفتيات قد انتظموا في تظاهرات كبيرة فرحا بمنفذة العملية، وعندما اقتربت أكثر منهم، سألت:

-هل تأكد ألها من المخيم؟

-من هي؟..

- ...؟..(آيات)!..

لم يكن منظر المتظاهرين غريبًا في أجواء انتفاضة الأقصى، لكنه اكتسب معنى آخر.. كان جيل جديد من الفلسطينيين، يخرج إلى هذا الشارع تسبقه الزغاريد ويلحقه أزيز رصاص الفخر الذي ينطلق من بنادق يحملها شبان صغار من أبناء المخيم، عاشوا يحملون قضيتهم على أكتافهم.

شرد ذهني إلى أعوام كثيرة سابقة..

إلى وقائع حدثت في هذا الشارع قبل خمسة وثلاثين عامًا.. تاريخ بعيد لا أعيه تمامًا ولكن عشت سنوات عمري مع نتائجه.. ولا يعيه هؤلاء الفتية والفتيات ولكنهم كانوا أبناءه.. أبناء ما أسموها: نكسة!.. وسمعت أيضًا، مثلهم، من والدي!..

* * *

والدي..

عاش ومات فقيرًا، في صراع البقاء مع الجهل والفقر والمرض، وهو الذي لم يبقَ لديه شيءٌ ليخسره مثل كلّ فقراء الدنيا، ظلّ يتمسك بكرامة وعزة، وبأوراق صفراء متآكلة..

وكانت فلسفته التي حرص على تعليمها لي، أن أعيش الحياة طولاً وعرضًا، ولا أخاف شيئًا.. وأقول للأعور (أنت أعور) في عينه، باعتبار ذلك قمة الشجاعة، ومات والدي قبل أن يعرف أن الشجاعة الحقيقة هي أن تقول (للحلو).. (أنت حلو) في عينه!..

وعشت غير مصدق أن والدي يمكن أن يكون شجاعًا، فهو رجل متعدد الانهزامات.. مهزوم أمام العمر الذي يجري دون أن تلوح في الأفق بارقة أمل.. مهزوم أمام القرش الذي لم يعد يجري بين يديه.

* * *

وكأن الفتية والفتيات هؤلاء يرفضون أن يعيشوا واقع الهزيمة، فخرجوا بعد خمسة وثلاثين عامًا لا ينتظرون أحدًا، ولا يُمَنّــون أنفسهم بأي ممَن لا يأتي، وإنما كانوا في انتظار عودة روح رفيقتهم التي أرسلوها إلى هناك، وجاءهم خبر النجاح، فخرجوا يرحبون بروحها!..

اقتربت منهم أكثر، لم يكن لديّ وقتٌ كثيرٌ، فالدبابات على المشارف، وستدخل في أية لحظة.. فسألت:

– من هي.. من.. هي؟..

– (آيات)... ابنة أبو (سمير)!..

* * *

كان أبو (سمير) قد ترك لحيته تنبت بدون تهذيب والسيجارة لا تفارق فمه، وأصرّ على الجلوس في المترل، رافضًا عرضًا أن نجلس معه في حوش الحارة الضيقة التي كان يجلس فيها أمام أحد الدكاكين الصغيرة.

كانت صور (آيات) المختلفة تملأ جدران مدخل المترل الصغير الذي حوّلته العائلة لاستقبال الضيوف، ومن بينها آخر صورة لها مع شقيقتها (سلام)، قبل الغياب الكبير بيوم، والتي كانت اصطحبتها في

زيارة لمدينة (بيت لحم) وتم التقاط هذه الصورة الأخيرة لها.

ولم تُلَمِّح (آيات) بأيّ شيء عما تنوي عمله لشقيقتها (سماح) وإنما قالت لها جملة بدت عابرة وغير مفهومة:

– ربما تكون هذه آخر صورة تجمعنا معًا!..

نظرت مليًا في عيني (آيات) في الصورة الأخيرة، علّني أستكشف نوايا وآمال اللحظات الأخيرة، ولكنني لم أنجح.. كانت عيناها في مثل كل الصور الأخرى، تشعان أمانًا وطمأنينة وتفاؤلاً وقوة إرادة..

أعرفها، قوة الإرادة هذه، بالإضافة إلى الذكاء الدافق..

نقاوم، جيلاً وراء جيل، وإذا كان التاريخ– ربما– سيتوقّف يومًا ما أمام ما فعله سياسيو فلسطين بنضال تلك الأجيال، فإنه يرتكب خيانة كبرى أنه لم يكتب محنيًا رأسه:" *لقد فعل أولاد الفلسطينيين، جيلاً وراء جيل، ما لا يمكن أن تفعله أية أجيال أخرى في ظروف مشابهة!..*"... أو " *فعلت، هذه الأجيال، ما كان يمكن أن تفعله أية أجيال أخرى، في أمكنة أخرى من أجل الحرية.. والكرامة.. وأشياء أخرى!..*".

ولكن..

ولكن هذه لها قصة أخرى!..

* * *

و اختلفت السنون، وبقيت القضية!..

صباح يوم التنفيذ، لم تكن (آيات) فقط تخطّ في تلك الساعات على ورقة، ربما كانت تلك التي قرأت منها خلال وصيتها المصوّرة ولكن أيضًا كانت تخط على مقعدها.

كتبت (آيات)، آيات قرآنية وأبيات من قصائد وكلمات أغاني!..

(يا رب.. إما حياة تسر الصديق.. وإما مماة يغيظ العدا)

(علمتني ضربة الجلاد.. أن أمضي، أمضي.. وأقاوم..)

(فلسطين عربية)

(يا أمي الحنونة.. لا تبكي علي)..

(شعارنا: لا إله إلا الله.. محمد رسول الله).

(وين الملايين.. الشعب العربي وين.. وين الغضب العربي.. وين الدم العربي ... وين..)..

(الله.. معنا الله أقوى من بني صهيون..)

(الشهيد البطل جاد عطا الله)

(الويل للعملاء والخونة.. ثورة حتى النصر).

(بسم الله الرحمن الرحيم: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون)

(دا حلمنا طول عمرنا.. صدر يضمّنا كلنا)..

(جايز ظلام الليل.. إنما يوصل لأبعد مدى).

(فلسطين الحبيبة..

أنا الشهيد يا أمي

إن النصر صبر ساعة..).

(سحقًا لأطفال العالم إن لم يعش أطفال فلسطين).

(يا ثوار الأرض ثوروا على الطغيان

.. ثوروا على الحرمان).

وبعد كلّ ما كتبته، مما دار في دماغها، وقّعت:

"أم (عدي) ... (آيات) الأخرس"

(آيات) الأخرس، لأنه اسمها.. وأم (عدي)، لاتفاقها مع خطيبها على تسمية الابن البكر القادم (عدي)..

وبتوقيعها بتلك الكنية، كانت ترسل إشارة حب وعهد لخطيبها

الحبيب.

وبعد ساعات وبينما كان المتظاهرون فرحين بـ(آيات) رغم المطر الذي بدأ يترل بغزارة، ظهرت (آيات)، في شريط مصور بثقة؛ تغطي رأسها الكوفية الفلسطينية.. وخاطبت الحكام العرب مباشرة: (كفاكم تخاذلاً).

وقالت (آيات)، التي كانت تقرأ من ورقة تحملها، أنها توجّه رسالة لهؤلاء الحكام المتخاذلين وجيوشهم التي تتفرّج على الجرائم التي ترتكب بحق الشعب الفلسطيني.

وأكّدت في وصيتها والتي لم تستغرق سوى ثلاث دقائق بأنها قرّرت الاستشهاد دفاعًا عن الأقصى وعن فلسطين وعن الكرامة العربية.

وختمت وصيتها بالقول (وا أقصاه.. والله أكبر على الظالمين).

واستمرت لساعات إضافية احتفالات الجماهير في مخيم (الدهيشة) بالشهيدة وأمّت الجماهير مترل عائلتها ووزّعت الحلوى وأطلقت الزغاريد.

* * *

ربما نسي (محمد) أنه يحظر على اليهود إشعال النيران في يومهم المقدس، وربما كان ذلك حاضرًا في ذهنه، ولكنه لم يقاوم رغبته الأخيرة في الحياة التي سيغادرها سريعًا سريعًا، وبعد لحظات وهو ما حدث عندما ضغط على الزر المتفجر، بعد أن نفث أنفاس سيجارته، وأوقع اثني عشر قتيلاً في أوساط الصهاينة، قبل وصول شرطة الاحتلال التي أبلغتهم تلك التي شاهدت السيجارة المشتعلة.

وكانت نذر التوتر تلوح في الأفق، وفجر اليوم التالي لعملية (ضراغمة)، أغارت قوات الاحتلال بمروحياتها على مقار أجهزة السلطة الفلسطينية ودمّرت ورشة حدادة خاصة تملكها إحدى عائلات بيت لحم.

وقتل في الغارة، التي أطلق خلالها نحو عشرة صواريخ، على تلك المقار وورشة الحدادة، حصانًا ترك وحيدًا داخل تلك الورشة.

وفي الليلة التالية صعّدت قوات الاحتلال من عدوانها واستخدمت طائرات الـ (أف- ١٦) في غارة جديدة على مبنى المقار الأمنية "المقاطعة"، وأحدث القصف الذي تم على مراحل تدميرًا كبيرًا، وأوقع إصابات في صفوف المواطنين.

كانت طائرات الـ (أف- ١٦) تحلّق في سماء المحافظة، وهدير

محركاتها يصم الآذان وأضواؤها تلمع في السماء، وأصبح المواطنون على يقين بأن هدفًا أو أكثر ستقوم طائرات التدمير هذه بقصفه، ومثل كثير من المواطنين شعر (يوسف إلياس) بالخطر المقبل خصوصًا وأن بيته يقع مقابل مبنى المقاطعة وهو أحد الأهداف الأكثر احتمالاً للقصف، فأخذ أطفاله الصغار وزوجته بسرعة إلى بيت والده، وكان مثل جميع سكان المحافظة يستطيع سماع أصوات الانفجار الذي أحدثه الصاروخ المدمّر الأول الذي سقط على مبنى المخابرات العامة في المحافظة، وتواصل القصف خلال نحو نصف ساعة سقط خلالها أربعة صواريخ كانت كافية ليس فقط لتدمير مبنى المخابرات وإحداث تدمير في مبنى الأمن الفلسطيني والأمن الوقائي؛ بل أيضًا في عشرات المنازل المحيطة بالمقاطعة .

* * *

(٨)

كان مؤثّرًا بشكلٍ خاص استشهاد الطفلة (نداء سليمان العزة) – ١٥ عامًا– التي استشهدت متأثرة بجراح أصيبت بها في صدرها نتيجة نيران أطلقت من بنادق جنود الاحتلال، عندما كانت في منزلها في مخيم العزة في مدخل مدينة بيت لحم الشمالي.

وتخيّلتُ (نداء) عندما عرفت باستشهادها، تحمل كتابًا عندما أصابتها رصاصة القناص، فهي كانت إحدى الطالبات الناشطات، في انتسابها للمكتبة العامة في المدينة، التي وضعت مديرتها الأجنبية المتطوّعة صورتها في المكتبة، وكانت تذكّرني دائمًا بها، حتى بعد فترة من استشهادها المؤلم.

وكان على جثمانها الصغير أن يعاني حتى بعد أن توقفت الدماء عن الجريان في عروقه، فتعذّر دفن الشهيدة في المقبرة الإسلامية قرب قبة

راحيل ليس بعيدًا عن المكان الذي تقطن فيه (نداء)، بعد أن تحوّلت إلى ثكنة عسكرية كبيرة، وزحف أهلها وقلة من المواطنين إلى مدينة (بيت ساحور) ودفنوها هناك، بجوار شهداء آخرين سقطوا على مدى سنوات النضال والكفاح والألم.

وصعّدت قوات الاحتلال بإطلاق صواريخ (أرض – أرض) من مستوطنة "جيلو" جنوب القدس على منطقة جامعة بيت لحم وأدّى ذلك إلى إحداث تدمير في بعض مرافق الجامعة وفي مدرسة راهبات الوردية المجاورة.

وبررت سلطات الاحتلال قصفها للمنطقة بأنه جاء ردًا على استهداف المقاومة بقذائف الهاون لمستوطنة "جيلو".

ولم يكن مغزى استهداف مستوطنة "جيلو" خافيًا، واعتبر نجاحًا كبيرًا للمقاومة خصوصًا وأن أحد أهداف هذه الحملة هو منع إطلاق النار باتجاه تلك المستوطنة الصهيونية المقامة على أراضي كان الاحتلال اغتصبها من أهلها سكان مدينة (بيت جالا) بعد الاحتلال لما تبقّى من الأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧م.

وجلبت قوات الاحتلال مراسلي وسائل إعلامها إلى منزل (دعامسة)، ومنازل أخرى، لكي تريهم ما اعتبرته (مختبرات) لصناعة

الأسلحة زعمت أنها عثرت عليها، أحدها على الأقل يعود لـــ(دعامسة)، وهو ما نفته المصادر الفلسطينية التي قالت إن قوات الاحتلال لم تستطع التوغل في مخيم (الدهيشة) بسبب المقاومة وبأن الإعلان عن العثور على مختبرات أسلحة هو نوع من التضخيم ولتبرير ارتكاب جرائم.

وفيما بعد علمت بأن بعض الصحافيين الذين أطلعوا على (مختبرات) الأسلحة وجدوا ما عرض عليهم من مواد (المختبرات) أمرًا مثيرًا للضحك، ولكن كان مجرم الحرب "(شارون)" بحاجة لتغطية فشله بالقبض على أفراد المقاومة، بالإعلان عن نجاحات.. أية نجاحات.

وفي النهار التالي، كانت سلطات الاحتلال تعتقل نحو ١٥٠٠ مواطنًا من مخيم (الدهيشة)، وتحتجزهم لمدة ١٦ ساعة، في معسكر أقيم على عجل، الصور الأولى المثيرة التي وزّعتها وكالات الأنباء عن الشبان الفلسطينيين الذين يتم وضع عصبات على عيونهم وتقييد أيديهم، وأثارت العالم، التقطت لهؤلاء، وكنت أحدهم، ولكنني غادرت، في غفلة عن جنود الاحتلال، مع زملاء من الصحافيين.

واستعرت شهوة التدمير لدى قوات الاحتلال، فدمّرت أثاث عشرات المنازل في مخيم (الدهيشة) وهدمت أسوار المنازل والمدارس

بالإضافة إلى تدمير شبكات المياه والصرف الصحي والشوارع الرئيسية.

* * *

عندما جلست في مواجهة أبو (سمير) أقنعت نفسي بأنني كنت أعرف كيف فكّرت (آيات) وكيف قرّرت..

إنها مسيرة طويلة، شعلة سلّمتها أجيال من الفلسطينيين إلى آخرين، حتى ولو لم يكن التسليم في احتفالات رسمية أو ظاهرًا، أو حتى محسوسًا..

ما يقوم به هؤلاء الفتية والفتيات، هو أنهم يلتقطون– بمهارة يحسدون عليها– (متطلبات المرحلة) في عمر القضية المؤلمة والمزمنة، فيتصرفون وفق ذلك.

أجيال تحمل الحجارة وأخرى تجرّب السلاح وثالثة تكتشف أن سلاح (الاستشهاد): قوة كامنة متشظية وقادرة، ودون انتباه كافٍ أو حتى أدنى انتباه لجهابذة المناقشين من الكبار: أكاديميون وسياسيون ووطنيون مرتدّون ومثقفون مستشرقون وآخرون باعوا تاريخهم بأموال المنظمات غير الحكومية أو بعبارة أوضح بأموال أجهزة المخابرات

الأمريكية وغيرها من نظيراتها.

كان الإرهاق باديًا على أبي (سمير)، فهو لم يجد أية فرصة لالتقاط الأنفاس منذ غياب (آيات)!..

فبعد غيابها، ترك المنزل وأولاده خشية القمع الاحتلالي، عندما تقدّمت الدبابات والطائرات الاحتلالية لتنفيذ عملية (السور الواقي) في محافظة بيت لحم والتي ستكون الأعنف والأكثر خطورة!..

وكان متوقّعًا أن يكون المنــــزل الذي ولدت فيه وتربّت وخرجت منه "(آيات)"، أحد أهداف الحملة، وهو ما كان كذلك ولكن في ظروف مختلفة.

وعندما نفّذت "(آيات)" عمليتها، عدّت اختراقًا لأجهزة الأمن الصهيونية التي كانت تضرب طوقًا محكمًا على محافظة بيت لحم، وتحتلّ قوات الاحتلال بشكلٍ جزئيّ مدينة بيت جالا الواقعة على مرتفعات تطل على مدن وبلدات محافظة بيت لحم.

وفي اليوم التالي لاستشهاد (آيات)- ٢٠٠٢/٣/٣٠- استشهد الشاب (أحمد إسحاق) في إحدى المستشفيات الأردنية متأثرًا بجراحٍ أصيب بها عندما كان برفقة الشهيد (جاد) وتم قصف سيارتهما.

وانطلقت مسيرات جماهيرية إلى مترل الشهيد في مخيم (الدهيشة)، حمل المشاركون فيها الأعلام الوطنية وأعلام الفصائل الوطنية والإسلامية وهتفوا مندّدين بجرائم الاحتلال.

وتجمّع مئات المواطنين في مترل والد الشهيد مهنئينه باستشهاد ابنه، ووصل جثمان الشهيد من الأردن حيث كان يعالج، في ظروف غاية في الصعوبة، وقطعت سيارة الإسعاف التي حملت الجثمان طرق جبلية وعرة بسبب إغلاق الطرق والحصار المشدّد.

وفي هذه الأثناء كان مركز الحدث الساخن هو رام الله، ولكن كانت نذر السحب تتوقّع أن ينتقل إلى بيت لحم، وهرع مندوبو وكالات الأنباء العالمية إلى المدينة في انتظار العدوان المقبل، بينما استمر القصف الاحتلالي لعدة مواقع حيوية في مدينة بيت لحم.

واستمر أيضًا المقاومون بإطلاق قذائف الهاون على مستوطنة "جيلو" وأمطروها بنيران أسلحتهم، ووزّع المقاومون أنفسهم على شوارع البلدة القديمة التي كان من المتوقّع أن تكون الهدف الأساسي لقوات الاحتلال، بعد أن كانت المخيمات هي الأهداف في التوغلات السابقة. ووصل عشرات من النشطاء الأوروبيين الذين اعتصموا في ساحة المهد بمشاركة العديد من المواطنين للتعبير عن رفضهم للاحتلال

وللإعلان عن تصميمهم للتصدّي لأي عدوان احتلالي يمس المدنين وقالوا إنهم سيمكثون في منازل المواطنين لدى بدء قوات الاحتلال توغّلها الواسع المتوقع.

وفي مثل هذه الأجواء المتوترة هزّ انفجار عنيف، يوم ٢٠٠٢/٣/٣١، مدينة أفرات الاستيطانية المقامة على أرض بلدة الخضر، وتبيّن أنه عملية استشهادية جديدة، بعد عملية (آيات) التي لم يفقْ منها المحتلون بعد.

ونفّذ العملية الجديدة (جميل خلف حميد)- ١٨ عامًا- واعتبرت العملية، بحق، اختراقًا جديدًا وهامًا لما قامت به قوات الاحتلال من تعزيزات أمنية وحصار للمحافظة، وكذلك تحديًا لإجراءات الأمن في مدينة "أفرات" الاستيطانية والتي تعتبر من أهم المستوطنات الصهيونية في الأرض الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧م.

واعتدت قوات الاحتلال على مسيرة سلميّة للمتطوعين الأجانب الذين قدموا ليكونوا دروعًا بشرية للفلسطينيين في وجه المحتلين، وانطلقت المسيرة بمشاركة العديد من المواطنين من مدينة بيت لحم باتجاه مدينة بيت جالا وهم يهتفون ضد مجرم الحرب (شارون) ويطالبون بانسحاب قوات الاحتلال فورًا من المناطق التي تم احتلالها.

ووقعت معارك حقيقية في شوارع البلدة القديمة في مدينة بيت لحم بين المقاومين وبين القوات الغازية المصحوبة بالطائرات والتي شكّلت خطورة حقيقية على المقاومين، وفي صباح اليوم التالي (٢/٤/٢٠٠٢) وصلت آليات الاحتلال إلى مشارف ساحة المهد، في مركز المدينة، وأحاطت بهذه الساحة من مختلف الجهات.

ووجّهت قوات الاحتلال التي دخلت المحافظة في ظلّ غطاء جوي من طائرات الــ (أف-١٦) ومروحيات الأباتشي بمقاومة عنيدة خصوصًا على مشارف مخيم (الدهيشة) مما أدّى إلى وقوع اشتباكات استمرت حتى ساعات الفجر.

كان الرصاص الصهيوني كثيفًا ويأتي من كلّ اتجاه، وبدأ الشهداء يسقطون تباعًا، وكان أولهم المواطن (عزيز العمري) – ٦٠ عامًا.

ودارت (حرب شوارع) في ساحة المهد والأحياء المجاورة لها، بين قوات الاحتلال والمقاومين الذين تحصّنوا في ساحة المهد.

واعتلى جنود الاحتلال البنايات المرتفعة في كافة أحياء بيت لحم، وأطلقت المروحيات الاحتلالية نيرانها على مواقع في ساحة المهد، وسط مقاومة عنيفة من المقاومين، وحسب شهادات المقاومين فإن العديد من جنود الاحتلال قتلوا في أكمنة نصبها المقاومون ولكن قوات الاحتلال

لم تعترف بمقتل أيّ جنديّ من جنودها وربما كان ذلك لأسباب معنوية وحسابات تتعلّق بالشارع الصهيوني.

وكان العديد من المقاومين ومعهم عشرات من المواطنين دخلوا إلى كنيسة المهد احتماءً من نيران المحتلين وخصوصًا الطائرات، بينما كان في مبنى البلدية عددٌ من الشخصيات العامة والصحافيين، الذين اعتقلت قوات الاحتلال بعضهم بعد اقتحام المبنى وتحويله إلى ثكنة عسكرية، أما كنيسة (مار أفرام) فتم اقتحامها لاحقًا.

ومن بين الذين سقطوا، الشهيدة الحاجة (سمية عابدة) وابنها الحاج (خالد عابدة) بقذيفة أطلقت على منزل العائلة في حارة (الفواغرة) في البلدة القديمة في المدينة حيث تركّزت المواجهات. وكان سقوطهما مؤلمًا ومؤثّرًا في الجماهير خصوصًا وأن جثتيهما بقيتا لأيام أخرى عديدة في المنزل بين أفراده الذين لم يتمكّنوا من إخراج الجثتين بسبب عدم سماح سلطات الاحتلال لسيارات الإسعاف بالوصول إلى تلك المنطقة، وكانت قوات الاحتلال تطلق النار على أيّ شيء متحرّك ولا تستثني من ذلك سيارات الإسعاف أو غيرها.

واستشهد أكثر من عشرة شهداء من بينهم (عمر شحادة محمد صلاحات)– ٣٩ عامًا – والذي استشهد في ساحة المهد، قرب مسجد

عمر بن الخطاب. بعد أن نزفَ حتى الموت من إصابةٍ في رجله ولم يسمح لسيارات الإسعاف للوصول إليه.

وحمل استشهاد (عمر) مفارقة شخصية ووطنية.

* * *

ففي الخمسينيات من القرن الماضي أصيب المواطن (شحادة صلاحات) –٧٠ عامًا– في ساقه بساحة المهد، برصاص جنود النظام الأردني خلال الهبة التي شهدتها الأراضي الفلسطينية الواقعة تحت الحكم الأردني آنذاك، ضد الحلف الاستعماري المعروف باسم حلف بغداد.

وأورث ذلك الحاج (شحادة) عاهة مستديمة في رجله رافقته طوال السنوات التالية، ومع ذلك كان أحسن حظًا من آخرين استشهدوا في تلك الأحداث، مثل الشهيد الطالب (عبد الله تايه) من مخيم (الدهيشة)، الذي أصبح رمزًا لنضال الحركة الطلابية آنذاك.

واستمر (شحادة) في عمله في المطعم الشعبي الصغير الذي يديره في ساحة المهد ومن مكانه رأى الكثير من ممارسات احتلالية ونضال بطولي ومقاومة، ولكنه لم يخطر بباله أن ابنه سيصاب في رجله أيضًا وفي نفس المكان بعد أكثر من أربعين عامًا على إصابته.

ولكن هذا ما حدث مع ابنه (عمر) وهو أحد المدافعين عن ساحة المهد، الذي أصيب في رجله وتُرك ليترف في مكانه، ولم يسمح لأيَ من الطواقم الطبية للوصول إليه، حتى استشهد.

ولم يستطع أحد الوصول إليه أثناء نزيفه وحتى بعد استشهاده، وتم نقله إلى المستشفى بعد يومين من استشهاده.

والشهيد (عمر صلاحات) هو الشهيد الثاني للعائلة خلال شهرين..

حيث سقط ابن عمه الشهيد (فراس صلاحات) أحد كوادر (كتائب الشهيد عز الدين القسام) أثناء قيامه بدكّ مستوطنة (جيلو) جنوب (القدس) بقذائف الهاون، وأثناء تشييع جثمانه في مسيرة حاشدة كان الشهيد (عمر) وآخرون يطلقون النار تحية للشهيد (فراس)، وكان (عمر) يدرك بأنه سيلحق بابن عمه، ما دام اختار طريق المقاومة، ولكنه ربما لم يكن يعرف بأنه سيصاب في نفس الموضع من الجسم، وفي نفس المكان الذي أصيب فيه والده، ورغم تغيّر الأنظمة التي توالت على (فلسطين)، فإن هذا الشعب ما زال يدفع ثمن دفاعه عن حرّيته.

وقبل أشهر شعر (عمر) بحزنٍ شديد على فقدان صديقه الشهيد

(عماد قراقع)، الذي سقط برصاص المحتلين قرب (قبة راحيل) شمال (بيت لحم) وأصيب ابنه وزوجته وشقيق زوجته بجروح.

ومثلما كان في استشهاد (عمر) مفارقة إصابته وإصابة والده في نفس المكان، فإن الشهيد (عماد) استشهد في نفس العمر الذي مات فيه والده وتركه طفلاً عمره خمس سنوات، وعندما استشهد (عماد) ترك ابنه ذي السنوات الخمس.

* * *

(٩)

وكان أبو (سمير) فرحًا بأبوّته الجديدة لـ(آيات) الصغيرة، التي أعادت (آيات) الأخرس الكبيرة إلى الحياة، بعد أقلّ من أربعين يوم على استشهادها. وعادت (آيات) الأخرس بميلاد الطفلة الصغيرة (آيات)، التي أسمتها والدهّا على اسم الاستشهادية (آيات) تيمّنًا بها.

و(آيات) الجديدة هي ابنة الشهيد (ناهض الجوجو)، الذي استشهد في شهر تشرين أول عام ٢٠٠١، وهو يدافع ببسالة عن مخيم العزة في مدخل مدينة بيت لحم الشمالي أثناء إحدى الغزوات الاحتلالية على محافظة بيت لحم، والتي أسماها المحتلون عملية "السكين في الزبدة".

وعندما استشهد (الجوجو) كانت ابنته (آيات) جنينًا في بطن أمها.

وكان (الجوجو) –وهو أحد أفراد الأمن الفلسطيني– قاد المقاومة في مخيم العزة ونظّم مجموعة من المقاومين تمكّنوا من إيقاع خسائر كبيرة

في صفوف قوات الاحتلال بأسلحة بسيطة وعبوات صنعت محليًا تعرف باسم (الأكواع).

وقال لي شهود عيان من المخيم، إن (الجوجو) الذي كان يقوم بواجبه في مقاومة المحتلين، قتل بعد إصابته برصاصة قناص صهيوني، ورغم أنه كان يعرف بأنه في مكان يمكن أن يصيبه في مقتل كما حدث إلا أنه أصر على بقائه في موقعه وأطلق النار على المحتلين قائلاً قبل لحظات من استشهاده: (إذا كانت لي بقية من عمر فسأعيش).

وعندما تكبر (آيات) سوف تعرف -ليس فقط بأنها تحمل اسم استشهادية دخلت قلوب الجماهير العربية بعملها البطولي الذي قامت به (دفاعًا عن الكرامة العربية والإسلامية)، كما قالت في وصيتها، وأن والدها بطلٌ ومقاومٌ دافع عن مبادئه حتى الاستشهاد- أن خالها كان شهيدًا، هو البطل (محمد أبو سرور).

ومن المؤكّد، إذا قدّر لـ(آيات) الصغيرة أن تنجو من بطش المحتلين وقتلة الأطفال، ستذكر بفخرٍ أنها تحمل اسم واحدة من أجمل بطلات هذه الأمة في عصرها الحديث، وبأنها ابنة شهيد وابنة شقيقة شهيد آخر.

* * *

في الليلة السابقة على العملية كانت (آيات) ساهرة مع والدها طوال الليل تقريبًا تذاكر دروسها، لتعويض ما فاتها بسبب اجتياحٍ سابق للمحافظة تعطّلت فيه المدارس، وتتابع معه، ومثله، ما يستجدّ من أخبار العدوان والتي كانت تترى خصوصًا وأن الحشود الاحتلالية كانت تزداد على أبواب بيت لحم ومدنها وقراها ودخول المحتلين متوقّع في أية لحظة.

وتابعت معه أخبار العملية التي قام بها الشهيد (أحمد عبد الجواد)، الذي اقتحم مستوطنة "ألون موريه" قرب نابلس، وقتل فيها أربعة من المستوطنين وجرح خمسة آخرين قبل أن يستشهد.

وفي هذه الليلة لم يكن هناك ما يفصح في تصرّفات (آيات) من أنها ستقدم على أهم عمل مفصلي في حياتها. كانت تذاكر مستعدة لتقديم امتحاناتها لتحقّق طموحها وتتابع دراستها العليا وتكون صحافية، وتتحدّث بتلقائية كما يحدث دائمًا وتصنع القهوة لوالدها كما كانت تحب أن تفعل.

وبعد الفجر بقليل أيقظتْ والدها لتصلّي تلك الفريضة.

وتنازلت على ما يمكن أن يساعد أهلها، أو حتى يساعدها في قادم الأيام، وهو بث إشارات توديعية لهم، ولكنها لم تفعل، فهذا ضد

السرية التي يجب أن تغلف العمل النضالي والوطني.

كم هي رائعة.. كم هم رائعون..

الفتية والفتيات الذين رأوا عمق القهر في عيون وقلوب آبائهم، فحاولوا وحاولن أن يعطوهم أملاً جديدًا؛ فقدّموا وقدّمن حياهم وحياهن على مذبح الحرية!..

وفي اليوم التالي، وكان يوم (جمعة)، ومثل أي طالبة مجتهدة تحرص على حضور اليوم الدراسي التعويضي لتعويض ما فات من أيام دراسية، تصل (آيات) إلى مدرستها وانتهزت فرصة ما لتقوم بدور الناصحة لزميلاتها، فنهضت من مقعدها وطلبت من زميلاتها أن يكنّ فعالات في مجتمعاتهن وأن يبنين أسرًا قوية وفاضلة، ويعددن أبناءهن لطريق طويلٍ من النضال!.. ودون أن يدري أحد كانت (آيات) في نهاية دوامها الدراسي تتجه إلى حيث سيعرف الجميع- بعد ساعات- إلى أين!..

سألت أبو (سمير):

– هل لديك أي عتبى عليها لأنها لم تخبرك أو تلمح لذلك أو تودّعك!..

فأجابني مبتسمًا بوقار السنين وعاطفة الأب:

– الله يرحمها، هي الآن عند رب العباد وتحت رحمته، إننا نعتب على أنفسنا ونطلب الرحمة لأنفسنا نحن!..

وأضاف بثقة دون أن تفارقه الابتسامة الحزينة والمعبرة عن قوة كامنة:

– مثّلت (آيات) بطولة الفتاة الفلسطينية، التي هي عبارة عن تضحية وصمود وإصرار!.. أعطت (آيات) العالم العربي درسًا!.. وتمثّل في نفس الوقت استمرارًا لإرث موجود وحي في تراثنا، خذ مثلاً (خولة بنت الأزور) – رضي الله عنها.

وكنت كلّ فترة وأخرى أنظر إلى عيني (آيات) في الصور المعلّقة، علّها تقول شيئًا، فوالدها يشعر بأنها لم تزل في المنزل ولم تغادره.

قال أبو (سمير):

– تعرف؟... عندما أدخل إلى المنزل أشعر بها وأحسّ بعيونها ترافقني!..

وكنت أودّ أن أقول له شيئًا مشابهًا، ولكنه أشار إلى ما وجده في حقيبتها بعد استشهادها والتي وصلت إلى المنزل بطريقة لا يعرفها:

– كان هناك في حقيبتها: حبة برتقالة، وقطعة شوكولاته، ومصحفها الصغير الجميل وشريطٌ يحمل عنوان (سراج الأقصى).

وتذكّر أيضًا:

– تعرف؟... (آيات) من مواليد ١٩٨٤/٣/١٨، وبين عيد ميلاها واستشهادها ١١ يومًا، وفي يوم ميلادها أصرّ أشقاؤها وشقيقاها أن يحتفوا بها وهكذا كان.. وكانت في جذرٍ، ألقها.. ألقها الذي سطع أكثر بعد ذلك اليوم، عندما وصلت مدخل الــ(سوبر ماركت) في تلك المستوطنة ووجدت بعض الفلاحات العجائز من الفلسطينيات يبعن قرب السوبر ماركت أغراضًا أنتجتها ما تبقّى من أرضهن، فانحنت (آيات) وتناولت باقة خضراء، لعلها نعناع أو سبانخ، وهمست لهن بأن يذهبن بعيدًا... بعيدًا، وقصدت (السوبر ماركت).. وفي ثواني معدودة انتقلت من موتٍ إلى حياة!..

* * *

(١٠)

ومادمنا لا نُتقن غير الشجب والإدانة، فإني سأشجب موتك!.. أجل أشجبُ موتك، الذي لم يُقدّم أو يُؤخر..

وأسألك: هل حلّ موتك الإشكال؟..

إنه حتى لن يعني راحتك بأي حال من الأحوال..

لكن.. الأمر ليس ذنبك ولا ذنبي، فكلانا مُغترب، وللغربة حبيبتي طقوس، ونحن قرابينها..

وأنا أوّل القرابين..

منذ شتاءات ثلاث، وأنا أبحث عن وطنٍ يختبئ بين زوايا البيوت، أو على جدران المساجد.. أو بين السطور..

وطن أعتنقه، فيهتف لي مُنتشيًا، بالعائد من وجع الهجرة..

آآآآآآآآآآآآه..

الوطن..

الوطن الذي أسّس علاقة الرفض بيْننا.. الوطن الذي سَرقني من صوْمعتي.. من عبادتي الأبدية.. من بقع الضوء.. من النَصّ المشاكس.. من مقاعد الجمهور، الذي ما عاد يفقه لساني..

الوطن– يا حُبّي الأبدي – يُنبت في القلب شجرة للحياة.

الوطن..

الشهقة الأخيرة.. والغُربة الأخيرة.. العذاب الذي لا ينتهي.. والدّاء الأخير..

مُغترب أنا بين سماء وأرض.. بين شمال وجنوب.. بين مشرق ومغيب.. بين وطن أعرفه ويجهلني..

بين شوارعه الواسعة.. بين صيفهِ الطويل، وشتائه البارد..

بين أهله.. بين اللهفة للأصدقاء.. بين جدران غرفة نومي..

بيني وبينكِ..

سئمت الغربة.. سئمت كوني بلا معنى.. بلا وطن..

فتّشت فم صديقي الذي أدمن الشاي.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت كوب الشاي.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت وجوه الناس.. فلم تكن وطنًا..

فتّشت جيبي.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت مواسم الفَرح.. مواسم العزاء.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت صدر حسناء.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت ذاتي.. فلم يكن وطنًا..

فتّشت في الوطن.. فلم يكن وطنًا..

كانت غُربة..

فهل يكون الوطن مُحاولة أخيرة لاجترار أمل ما، حتى إن بدا ساذجًا؟..

ولم أدرك إلى أي حد كان مُوغلاً في ظُلمي، حتى قرأت أوراقك..

لكن ما أكثر الذين أحبّوا الوطن، فذهبوا وبقيَ هو!..

ما أكثر الذين كرهوه، ففنوا وظل هو!..

وما أكثر الذين لعنوه، فاستمر وتلاشوا!.

وأنت وأنا فتنتنا المدن.. وضعنا قائمة بأسماء المدن التي سنتسكع في طُرقاها، بحثًا عن تفاصيل مُوغلة في غرابتها، عن الناس، عن الحزن وأحيانًا عن الحب..

بيروت، روما، دمشق، موسكو، برلين، بكين، جنيف، القاهرة، صنعاء، مدريد، نيويورك..

وأخيرًا.."الإسكندرية"..

دائمًا يجب أن يكون البحر جارك..

وكنتِ تقولين إنكِ ستزورين "الإسكندرية" ليمنحك الحب فرصة اكتشافها موْجة موْجة، بنايةً بناية، شارع شارع، عصفور عصفور، وقلب قلب.

ما أقساكِ!..

هأنتذي قد رحلت، قبل أن تدعيني أكتشف معكِ الوطن..

المدينة التي كشفت لحبّكِ عن وجه لم أره فيها..

ظللتُ البارحة أتذكر كل الأماكن التي عبرت في أوراقك،

الشوارع والمنعطفات والجسور والبنايات الضخمة والبحر – قميص الإسكندرية الشاحب المتراجع دومًا إلى الوراء– المدفون تحت أطنان الرمل من أجل أن تصير اليابسة أكبر من البحر، وكم كان غريبًا أن أكتشف أن كل ما عرفته عن البحر لا يشبه بأي حال من الأحوال ما عرفته أنتِ وكتبتِه.

وها قد خلت "الإسكندرية" منكِ!.

هاهيَ ذي تكشف لي عن وجه الموت، وتقرأ عليَّ سطرين من كتاب المعرفة، ثُمَّ تسلمني للشوارع، لنَزق الذكريات وجنونها، للبحر – قميصُها الشاحب – يفتح عُشّاقها أزرّته واحدًا تلو الآخر، وإذ تتبدّى التفاصيل، تكون الدهشة قد أخذتهم بعيدًا، وتكون هي قد رتّبت شعثها وعدَّلت هندامها، في انتظار عاشق جديد.

الآن، لا بحر في البحر..

وأنا لم أنم، ولم أبكِ – ما أقساك!..

حتى الدمع أخذتِه معك!..

و(أغسطس) يغير طقسه تجاه الموت.

(أغسطس) يقتل الغيم ويصفع وجه البحر.

(أغسطس) قاسٍ شحيح مستبد، وأنا أكرهه..

وأكره البحر.

تركتِ رفوفًا من الذكريات والتفاصيل الصغيرة التي لن تغيب عن القلب.. وجهك ونحن نتداول أحاديث العذاب أمام الفردوس المفقود، وتنورتك الزرقاء الشاحبة ترتطم بساقيّ مثل موجة بحرية بلا زَبد.. في نهاية الأمر، ربما كُنّا نحن الزَبَد الهشْ الذي يذهب جُفاءً.. ولم نكن نتحدث، كُنّا فقط نحاول ألا نستسلم لليأس الذي غدا مثل أكُفٍّ عملاقة تطبق على الأحلام فتغتالها.

لعنةُ الله على شيء لا يُثمر عدا الموت.

وهل غدا في حياتنا غير الموت؟.. الموت المجاني، نصحو عليه وينام علينا.. موت في كل مكان وزمان.. موت على ضفاف دِجلة، فوق جنوب لبنان، في غزة، في الرياض والخبر.. في العراق وأفغانستان..

تخيّلي!.. حتى شوارعنا غدت مَسارح للسيّد المُبجَّل الموت، وحتى نحن صرنا نتحدث عن الإرهاب والتطرف..

عن الديكتاتوريّة..

عن الكلمات المحظورة التي غدت مباحة، أو -على الأقل -صار

يُمكن تداولها جَهرًا.

ربما كانت الدنيا تتغيّر؟..

بل إنها تتغيّر..

ترتدي قناعًا كابيًّا وتقف في الشرفة ترقب كيف يصطخبون عند بابها؟.. كيف تسيل الدماء وتتفجّر الشوارع ويتضخم المال، ليتكدّس ويتكدّس ويتكدّس؟.

المال!..

السلاح الذي فُتنتْ به "أمريكا"..

ينام "بوش" ويصحو ليوَّقع عقوبات اقتصادية جديدة أجازها الكونجرس، وأمامه يتزاحم الصحفيون والمصورون ومراسلو الوكالات ليُسجلّوا اللحظة بأدق تفاصيلها..

تخلّت "أمريكا" عن سياسة الولد المدلل الذي يشيح بوجهه عند الغضب.

صارت تبحث عن أدوار جديدة وتُنفّس عن غضبها بالعقوبات..

نضَجت أمريكا أخيرًا!.

(ها ها ها، حلوة نضجت دي. روعة).. لا.. لا أريدُ أن أضحك.. أريدُ أن أبكي ولو دمعة وحيدة، أغسل بها كل التفاصيل التي عشناها معًا.

يقولون إن المرأة تهوى التفاصيل الدقيقة، حياتها كلّها شبكة من التفاصيل المُتلاحقة، المُتناثرة، المُتكوّمة في جهة ما، الخالية في جهة أخرى مثل قطعة عريضة من الدانتيلا بعروقها وورودها وخيوطها المُتشابكة المُعقدّة.

ربما لأن المرأة تُشبه قطعة "الدانتيلاّ" في شفافيّتها وتفاصيلها الكثيرة المُبهرة، وفي عروقها المُتشابكة المُعقدّة..

يهوى الرجال الكتابة عنها أكثر من فهمها.. في آخر الأمر، المرأة أيضًا – ولن أستثني – ترتدي "الدانتيلاّ" دون أن تفهمها!

والفرق أن الرجال لا يفهمون الدانتيلاّ ولا يرتدونها.

من قال إني أريد الحديث عن المرأة أو الرجل أو حتى الدانتيلاّ؟!

لا أريد غير أن تهزّني أمي الآن لأكتشف أني استغرقت في النوم، وتركتك تنتظرين قدومي لنذهب إلى جامعتك، ثُمَّ نخترق الزحام صوْب ليلة القدر، نشتري الــ(نسْتو) التي تعشقينها، ومعها (الفينو) المُدلّل،

ونبدأ التسكّع حتى آخر مسافة مُمكنة، نستسلم لعُزلتنا وسط عالم لا نُشبهه، وعجز عن أن يُشبهنا.

أسألك ما الذي فعلناه طوال هذا الوقت غير أن نقرأ ونرشف القهوة ونتجادل ونتسكّع أمام الواجهات الزجاجيّة؟.. غير أن نستسلم لليأس دون أدنى محاولة للمُقاومة؟.. هل تعتبرين هذا إنجازًا ؟..

أنا أعتبره خيبة..

أجل، خيبة جديدة في سرب الخيبات الذي يُحلّق في سماء القلب، ويكفي أن أتذكر موتكِ حتى أتأكد من كلامي.

وأنا عاجز لأني مشوش..

أعرف أنك مُتِ لكني غير قادر على استيعاب ذلك..

عاجز عن أن أفهم لِمَ تموتين الآن في هذا التوقيت المُوجع؟..

لِمَ ينبغي أن ترحلي في زمنٍ يرحلُ فيه كل شيء، كل أمل، كل حلم، كل أمنية انتظرناها ولا يبقى غير الذل؟!

أريد أن أبكي!.

أجل أريد أن أبكي قبل أن تباغتني أمي برأسها المُطلّ من وراء

الباب فتلعن السهر والدمع، ثُم تلعن الكتابة والأوراق التي اختلطت بأوراقك، الصور والرسائل التي خرجت من أدراجها، والهدايا والمذكرات الصغيرة والأشرطة..

آه.. ما أكثر الأشياء التي تركتها ورحلتِ!..

ألم أقل لك إنك قاسية، مُستبدّة مثل أغسطس الذي ضنَّ عليَّ بكِ ثُم بالدّمع والعزاء؟!

كنتُ أريد أن أغفو، والآن لا أريد غير أن أبكي..

إلهي، إذا كان كل هذا الحزن عاجزًا عن أن يقطر من أحداقي دمعًا، فما الذي سيأتي بالدمع؟..

لو أني– فقط– أفتح النافذة الآن، وأصرخ حتى ينحلّ وَثاق الدَمع:

أعلنُها الآن يا كل رجال الأمن في العالم..

أنا ضدُّ الوطن..

أعلنُها لكم يا كلّ الساسة على هذه الأرض..

أنا ضدُّ الوطن..

أعلنُها لكم يا صحافيُو الوَكالات..

أنا ضدُّ الوطن..

أخبركِ يا أمي بكل صراحة..

أنا ضدُّ الوطن..

ألعنك يا حبيبتي ألفَ مرة، صارخًا: أنا ضدُّ الوطن..

أنا ضدّك أيُّها الوطن..

أنا ضدّك أيُّها الوطن..

ضدّ حبي لك، الذي أوْعزني وأحوَجني..

ضد انتمائي لك، الذي سجنني في زنازين مخفية تحت الأرض..

ضد قيودك القاسية التي شَجبت دماء حبيبتي، وأهدرتها، كما شجبتَ أنت موتي، وأهدرتني..

أنا ضدّك أيها الوطن..

أنا ضدّ الوطن، فمَن يعتقلني؟..

أنا ضدّ الوطن، فمَن يمنحني الخلاص؟.

* * *

وصـــــية (آيات)

"بسم الله الرحـــمن الرحيم"

"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نـــحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً"

"صدق الله العظيم"

أنا الشهيدة الحيّة، (آيات محمد لطفي الأخرس)، أقوم بعملي هذا خالصًا لوجه الله العلي القدير، وتلبية لنداء الشهداء والدم والأمهات الثكالـــى والأيتام وكلّ المستضعفين في الأرض، و تلبية لنداء الأقصى الشريف. وأقول لحكام العرب كفاكم نومًا.. كفاكم تخاذلاً وتقاعـــسًا عن أداء الواجب تجاه (فلسطين)، وخسئت الجيوش العربية النائمـــة، التـــي تنظر عبـــر شاشات التلفاز، على بنات (فلسطين) وهن يقاتلن، وهم في غفلتهم نائمون.. وأقول صيحـــتـــي هذه وليسمعها كـــــلّ عربي مسلم أبيّ ...

وا أقصاه... وا أقصاه ... وا فلسطين ... وا فلسطين ...

الله أكبـــر .... الله أكبـــر ... على الظالمين ...

"و إنها لانتفاضـــــة حتـــى النصـــــــــــــر"

الشهيدة: آيات محمد لطفي الأخرس

٢٠٠٢/٣/٢٩